مقهى سيليني
اسماء الشيخ
رواية
جائزة محترف نجوى بركات 2014

مقهى سيليني
تأليف أسماء الشيخ

تحويل و تنسيق
د / حازم مسعود

إهداء

إلى أمّي

١

يأتون ويذهبون، يخلّفون وراءهم وجعًا. لا ترتحل الروائح ولا الأنفاس إثر أصـــحابها، بل تنطبع على جدران بيت الحجّام الذي يستمدّ نقصه من نقص الأجساد الزائرة.

تهرول رُقَيّة خلف مرضـــى أبيها لتجمع أشـياءهم الملطّخة بالدماء، متجنّبة تأوّهاتهم المتناثرة على الملاءات وكؤوس الهواء. تخاف رُقَيّة المصنوع عالمها من شكاوى الغرباء أن تعلق بجسدها شكوى تائهة ضلّت طريق العودة إلى جسد صاحبها. تعرف ـــــ كيقين غير معلن ولا معلوم المصدر ـــــ أنّها لن تتحصّن من آلام الزائرين سوى بصلاة حرّة تحرّرها من ذلك الخوف، وأنّها لن تحصل على صلاة حرّة إلاّ بعد ليلة عشق طويلة وتأوّهات، وبعد شبع عنيف من الاحتضان والضمّ، وبعد بكاء. لن تضحك مثلما حكت لها الفتيات عن ضحك الغانيات في الليلة الأولى، بل ستبكي كطفل تائه رُدّت إليه روح أمّه فاهتدى.

نادى الحجّام على ابنته:

ـــــ الفول ناقص زيت وملح...

كانت رُقَيّة قد صـلّت ركعتي الصـباح للمرّة الثالثة، إذ كان في نفســها هاجس يشـكّكها في تقبّل الربّ لصــلاتها. لكن مزاج الأب الصباحي الذى لا يحتمل نقص الملح في الطعام، دفعها إلى أن تسلّم يمينًا ويسارًا لتقوم من ثم مسرعة نحو المطبخ ولتعود وفي يدها علبة الملح الصفيح. مقعدا عبد الله وأمّها خاليان. تعرف أنّ عبد الله يختبئ من الإفطار وأنّ أمّها لا تستيقظ مثلهم مبكرًا.

بحثت رُقَيّة عن أخيها أسفل المقاعد وخلف الستائر، في أركان المطبخ الضيّق، وداخل حجرتهما المشتركة، ووجدته بالنهاية نائمًا إلى جوار أمّها وعلى وجهه خريطة من الجبن والمربّى رسـمها عن غير قصـد لأنّ عبد الله لا يميّز بين فمه وأنفه. مسـحت بقايا الطعام عن وجهه، وتركته وأمّها في سلام حتى تنتهي من بعض أمورها قبل أن يستيقظا، وقبل أن يبدأ اليوم صخبه.

سمع الحجّام خطوات صاعدة على سلالمهم الخشبيّة التي تئنّ تحت وطأة زوّار البيت الكثيرين، فهبّ متعجّلاً. ابتلع لقيمات الفول ثم ارتشف آخر سواد الشاي. حوّل أوامره من زيت الطعام إلى زيت اللوز المرّ. بإمكان رُقَيّة تميّز الأجساد المتألّمة والأخرى السليمة من الأزيز الذي تصدره أحذيتها على خشب السلّم. لكن أباها لا يمتلك حساسيّتها.

فتحت رُقَيّة خزانة الأواني في حجرة الأدوات، تناولت آنية الزيت الكبيرة والقمع وأخذتها إلى أبيها في حجرة الحجامة المجاورة، قبل أن تتّجه صوب الباب لتفتح للطارق. كان الطارق الفتاة التي تعمل لدى تاجر الذهب التونسي وحقيبة أقمشة أرسلتها العروس ابنة التاجر لتخيط لها أمّ رُقَيّة جهازها. اقترب موعد زفافها ولا يوجد أفضل من ضربة مقصّ بهجة الخيّاطة لتفصيل الساتان والحرير. وضعت رُقَيّة الأقمشة في غرفة أمّها وراحت نحو الشرفة.

في الحجرة البحريّة، شـمّر الحجّام عن ذراعين هزيلتين ليملأ زجاجات بنّيّة صـغيرة بزيت اللوز ويخلطها من ثم بالكحل الأسـود. كحّل عينيه، ونادى على عبد الله ليرسـم له وشـم الذقن اسـتعداد للعمل. كان أخوها عبد الله جزءًا هامًّا من جلسـة الحجّامة. يجلس محتضـنًا دفًّا يدقّ عليه طيلة فترة العلاج. تحبّه النساء وتعتبرنه صحبة أليفة في جلسات العلاج المنفردة. ويعطف عليه الرجال وإن كانوا أحيانًا ينفرون من وجوده كشـــاهد على أوجاعهم. ولد عبد الله بتأخّر في نموّه العقلي وبفارق عمر كبير بينه وبين رُقَيّة. الإثنا

عشر عامًا التي تفصل بينهما قضاها أبوهما وأمّهما ـــــ التي تصغر الحجّام بخمسة عشر عامًا ـــــ ما بين عطف وكره. السنوات التي باعدت بين الحجّام وزوجته، آلفت بين قلبيْ رُقَيّة وعبد الله.

سقت رُقَيّة النعناع والريحان المزروع برعاية أبيها في الشرفة، صنعت للريحان غطاء من البلاستيك الشفّاف لتحميه من العصافير التي تحطّ فوقه لتأكل زهراته. تحايلت على عصافير الصباح القادمة مع الندى، بنثر حبوب الذرة المفروطة لتنشغل بها عن زرعهم. كانت العصافير والحمام تحطّ على سور الشرفة الحجري لتنقر حَبّها، مصدرة موسيقى طبيعيّة تعوّضها عن تأخّر جارهم عن تشغيل الجرامافون. لم تكتمل شمس الصباح، وجارهم ما زال نائمًا، لذا فإنّ أوان موسيقاه لم يأتِ بعد.

كلّما خرجت رُقَيّة إلى الشرفة لتقطف عشبًا نابتًا أو لتزرع آخر جديدًا، رافقتها أغنيات نجاة علي وسيّد درويش. كانت أغنية «يا ورد على فلّ وياسمين الله عليك يا تمر حنّة» هي أغنية رُقَيّة المفضّلة. أحبّتها يوم اشتهت سماعها ووضع الجار الطيّب أسطوانتها على الجرامافون في التوقيت نفسه صدفة. بدا العالم يومها مكانًا طيّبًا يحنو على رُقَيّة، فنشأت صداقة الجوار والموسيقى بينها وبين الشرفة المقابلة.

عندما لم يستجب عبد الله النائم لنداء أبيه، ذهب ليوقظه، فاستيقظت بهجة زوجته هى الأخرى على الاهتزاز المتواصل للسرير. كانت بهجة تكره استغلال زوجها لطفلها الصغير في جلسات علاج تراها خانقة. تنقبض معدتها من رائحة المسك الأبيض التي تغلّف يد زوجها وأنفاسه في نهاية اليوم، وغالبًا ما تتقيّأ في آخر الليل من أثر الروائح الساخنة التي تعبق في أجواء منزلهم. ورغم التهوئة المستمرّة التي حافظت عليها رُقَيّة للحجرات، كان قيء أمّها لا يتوقّف، وكأنّ الروائح السخيّة كانت عذرًا ظاهريًّا لسبب أعمق ينفّر معدة بهجة من هواء البيت في مجمله. بالطريقة هذه، كان اليوم يمضي بين الشيخ حسين وزوجته. أشياء تافهة سطحيّة تحفّز ردود أفعال باطنيّة عنيفة.

علا صياح أبيها، فغادرت رُقَيّة الشرفة مسرعة لتقوم بوظيفتها كإسفجنة تمتصّ الصدمات التي تشرخ جدران منزلهم. عندما يستخدم أبوها طبقة صوته الغليظة، فإنّ ذلك يعني أنّ كارثةً حلّت، أو أنّه سيصنع واحدة طازجة لتوّه. كان عبد الله ضحيّتهما هذا الصباح. مستقرّ في حضن بهجة الجالسة على السرير النحاسي العالي، متقلّب بين النعاس والصحو، فيما يجذبه أبوه الواقف إلى جوارهما من ذراعه بعنف... «مش على كيفك، الوشم حيترسم والولد حيشتغل»... لم يكن عبد الله واحدًا من أوراق الحجّام التي يلاعب بها زوجته ليردّ على تبرّمها من حجّامته وطقوسها. كان إصراره على عبد الله مهنيًّا. فوجه الطفل البريء وعقله الذي لا يكبر، منحا جلساته البركة والمزيد من العملات.

وقفت رُقَيّة تراقبهم في حيرة. كانت تعرف ما عليها فعله في الصراعات التي لا تتورّط فيها هي أو أخوها. تنفّذ ما يطلبه أبواها بالتساوي وتهادنهما. أمّا الآن، فحيادها هذا لا ينفع عبد الله المحاصر في المنتصف بينهما في تخليصه من قبضتيهما. جفّ حلق رُقَيّة وصعد إلى حلقها طعم مرارة غريبة المذاق. بكى عبد الله متألّمًا من إحكام القبضات على ذراعيه. همّت أن تصرخ بهما أنّ من يبكي في المنتصف هو صغيرهما، إلاّ أنّ عبد الله نجح في التملّص من حضن أمّه، فركل أباه وهرول نحو رُقَيّة محرّكًا يديه دائريًّا حول بطنه. عبد الله جائع. علّمته رُقَيّة كيف يخبرها بجوعه وبرغبته في دخول المرحاض. ضحكت وحملته بعيدًا عن الحجرة الصاخبة نحو المطبخ، صنعت له لقيمات الجبن والمربّى وأطعمته إيّاها كقطار يتّجه نحو فمه مباشرة ويصيب. فرح باللقيمات واللعب ونسي ألم القبضات على ذراعيه.

وجد حسين الحجّام وبهجة نفسهما بمفردهما دونما شيء يتصارعان عليه، فصمتا وتوجّه كلّ منهما نحو عالمه.

أحضرت رُقَيّة المكحلة، وأجلست عبد الله على ساقيها لترسم الوشم على ذقنه. كان يتذوّق أيّ شيء حول فمه الصغير، لذا مدّ لسانه ليستطعم الكحل المخلوط بزيت اللوز. كان للكحل طعم اللوز المرّ. نفر منه عبد الله وتقلّصت ملامحه بضيق. تحتفظ له رُقَيّة في جيوبها بحلوى السكّر المعقود التي تصنعها على مهل. تعطي بعضها لحمّام أمّها مخلوطًا بماء الورد، والباقي لعبد الله تطعمه إيّاه وهي تحكي له حواديت أمّها القديمة التي شكّلت خيال طفولتها. يحبّ الصغير حكاية البلدة المصنوعة من غزل البنات. انطلت عليه الخدعة القديمة نفسها، فظنّ كما ظنّت رُقَيّة في صغرها، أنّ أباهما هو فارسها الهمّام. مع نضوج رُقَيّة لم تعد عمائم أبيها البنفسجيّة كافية لتجعل منه فارسًا، وهو نضوج لن يحصل عليه عبد الله، لذلك تراه يدقّ الطبول امتثالاً لأوامره وللحصول على مكافأته من الحلوى.

أعطت رُقَيّة عبد الله دفًّا وأدخلته إثر أبيها إلى الحجرة البحريّة.

زوّار المرّة الأولى لا يدركون ما ينتظرهم في الداخل. يتطلّعون بعيون يملأها الفضـــول نحو باب الحجرة، نحو شـــيء لا يدركون كنهه، غائب عن أذهانهم المرهقة بفعل المرض. ما عدا عالية. كان ذهن عالية صـــافيًا. أرشـــدها إلى الحجرة البحريّة، وتمدّدت من اليوم الأوّل على منضدة الحجّام بثقة الجسد المعافى. بحثت في طبّه عن عقم لطالما وفّره لها أبو رقيّة. كانت زيارتها استثناء. يدخل معها الحجّام قبل عبد الله، ليستمع إلى أعراض صـحّتها، تلك التي لا تلائم لا رغبتها ولا مزاجها. تشـكو من أرق وصـداع، لكنّها أعراض عابرة أمام صـحّة رحمها القابل دومًا للإمتلاء، والراغبة دومًا في إفراغه. تمنّع الحجّام حينًا عن إفراغ رحمها، وسـايرها أحيانًا أخرى. وفي كلّ الحالات، كان يرتدي خواتمه ويضـبط إيقاع نبراته وهو يسـمّي كلّ خاتم باسـمه. الخاتم الواصـل للإبهام، الموصول للوسطى، الهادي للبنصر، والمهتدي للخنصر، أمّا خاتم الشفاء فللسبّابة. كان يقرأها على رأسها النائم، يسير على شعرها والخواتم في كفّه، ويهمس بآيات لا تسمعها. يخلع خواتمه جملة، ويلقيها مجتمعة لتحدث في أذنها صـخبًا. حينها، تصير عالية ممدّدة على المنضدة والخواتم من حولها، واصلة، موصولة، مهتدية وهادية، راغبة في الشفاء من دنس تقول إنّها لا تعلم مصدره.

عين الحجّام اليسـرى تتفحّص المرض، واليمنى تتفحّص المريضـة، تلتهمها. كان الحجّام نصـف مذنب، نصـف ولي. قدّيس راكم قدسيّته في حواري العطّارين بالاختلاس المتواطئ. «هنا فوق المبيض الأيسر». شرح الحجّام بالفصحى خطوات علاجه. الشرح المفصّل طقس. رسم حول خطواته القدسيّة. أشعل النار في مجمرة فحم ونادى على رُقَيّة: «كؤوس الهواء يا ابنتي... كؤوس معقّمة رزقك الله الخير».

كانت رُقَيّة تدرك، لحظة لجوء أبيها للفصـحى، أنّ الأمر جادّ وأنّ عليها التوقّف عن الشـرود الذي يلاحق سـاعات نهارها. تعلّمت كيف تمحو آثار الدماء عن الكوؤس. بعد الماء المغلي يأتي دور الزهرة الزرقاء. يليهما الكلور الأبيض، ثم يغلّف ذلك كلّه البخار. ولا يجوز لرقيّة أن تمسّ الكؤوس المعقّمة. ربّما في لحظات شـرودها تنسـى الزهرة الزرقاء أو تسـبق الماء المغلي بالكلور. شـرود رُقَيّة يمنعها أحيانًا من التعقيم السليم لأدوات الحجّامة، لكنّ اللغة الفصـحى تنبّه حواسّـها أن لا مجال متاح للأخطاء. حملت الأدوات الطاهرة في آنية معدنيّة وطرقت الباب.

توقّفت رُقَيّة عن الاهتمام بالحجرة البحريّة، يوم توقّفت عن التلصّـص عليها. كانت لغزًا في صـغرها. تنتظر اللحظة السـحريّة التي ينفتح فيها بابها العالي المنقوش لتعرف ما يدور بالداخل. علقت بذاكرتها الطفلة أنفاس وبخور ونار. أحيانًا كانت تطلب منها أمّها أن تدخل إلى أبيها بكوب شاي أو بجرّة عسل طلبها، فتخرج من تلك الزيارة القصيرة وقد سكنت أنفها رائحة نفّاذة حيّة لم تعرف لها في صـغرها مسمّى. في عامها السـادس عشر، مع نزول أوّل حيض، ظنّت رُقَيّة أنّ الرائحة طالتها وأنّها صـارت موسومة بها. حاولت عبثًا التخلّص منها بوضـع روائح جديدة هي خليط من أعشـاب مختلفة، لكن رائحة جلدها الذي ينضـج بقيت ترافقها، ولم تعرف هي برعونتها المعتادة أنّها يوم تتخلّص منها تتخلّص من الحياة.

رعونة رُقَيّة داء لم يمتلك الحجّام له علاجًا. حاول أن يداوي لامبالاتها، لكن جلســـات الحكي الطويلة هي التي مدّت بين الحجّام وابنته جسور الفهم. كان يحكي لها عن بلده... رشيد، وعن الممشـى النهري. قطعه في صـغره وهو يأكل السماء بنهم، حفظ مواقع النجوم وفتّش في مسـارات الأقمار ورسم خرائطها، كان هدفه حينها ارتياد مسـارات السماء كأنّها الطريق من منزلهم الريفي، نحو الممشـى المطلّ على النيل. كان النهر يجري أسفل الكباري الخشـبيّة في الأيّام القديمة قبل أن يصـبح حجّامًا، بتراخٍ وملل، وهو فوقه مشتعلاً بكثرة وصْفات أبيه، جدّ رُقَيّة.

كانت بهجة زوجته تشـرد عندما يطيل حسـين الكلام في ما لا يعنيها. رُقَيّة ورثت هذا الطبع عن أمّها. لكن حكايات رشـيد أذابت اللامبالاة عن عقلها. جذبها تاريخ عائلة أبيها، واستمتعت بتفاصيل الجدّ الذي لم تر له صورة وشكّلته كأحجية في خيالها. عرفت عن الجدّ إفطاره الصباحي الخاصّ... شوربة عدس ساخنة يصنعها بنفسه. كان ينقع عدسًا أصفر، ويقطّع جزرًا وبطاطس، ثم يذهب ليؤذّن في البلدة الناعسة بأذان الفجر. يؤمّ من يؤمّ، ويعود ليطبخ حساءه الأصفر السميك. يتجرّعه كواحد من وصفاته الخاصّة التي منحته إلى جوار شـهادة العالميّة الأزهريّة، صـكّ ائتمان بين أهله. كانوا يقصـدونه في علاج العقر، الصـداع، الأرق، النزيف غير المبرّر، سوء الهضم، النحافة، الدوالي، عرق النسا، الروماتيزم، القلب وحزن القلب، الضـجر وأوجاع الحمّى والحماة. داوى جدّها بعطارته أوجاع بلدة بأكملها، وأورث أباها حســين الحجّام إرثًا ثقيلاً كان يحافظ عليه بمشـــي طويل فوق النهر ليحفظ الوصـــفات بمقاديرها، منتظرًا دوره في إنقاذ بلدته كما فعل أبوه. لكن طريقه كان طويلاً. مع نعاس أهل البلدة، كان يخرج حســين إلى حقولها عابرًا فوق جسورها الخشبيّة. كانت الترع تقسّم رشيد إلى قطع أراضـي متناثرة، غنيّة بزرعها وحشائشها التي طالما توقّف حسين في صغره ليشمّ رائحتها الطينيّة النديّة. كان يسمع فحيح الثعابين الغضّة المختبئة بين الثنايا. ولحبّه للمغامرة تركها ذات مرّة تتحسّس أنفاســه الطفلة المجتهدة، أغراها بالدفء فأوشـكت على لسـعه، وعندما اقتربت منه جرى وما زال يجري من يومها حتى الآن من لسعات وفحيح الوصفات.

كانت مشروبات الزنجبيل الساخنة المحلاّة بالعسل ترافق حكايات أبيها عن الجدّ، تلك التي وصفها العارفون للذاكرة. وكانت رُقَيّة تجلس في القبو إلى جوارها في صغرها وتنصت، دون ملل. ظنّ الحجّام أنّه عالج لامبالاتها. لكن رُقَيّة انتبهت للشقّ الرشيدي من الحكاية، ولم تستجب للزنجبيل الذي لم يستطيع العسل تحلية لسعته على لسانها.

حملت رُقَيّة في يدها الأواني المعدنيّة. طرقت باب الحجرة، فأتاها صوت من الداخل أن أدخلي. في الماضي كان ينهرها، ويبعدها. وما بين الصوتين، لم تتعلّم سوى التعقيم الذي تحارب به الدماء المنفوثة فوق أدوات الحجّامة وأجساد المرضى. راقبت حركات أبيها علّها تلبّي رغبته في إرث لم ترغب فيه يومًا...

وضع الحجّام على اليسار خواتم الوصل، وعلى اليمين خواتم الاهتداء، وعند الرأس خاتم الشفاء. على موضع المرض وقف الحجّام كلّه. دلّل أبوها الموسى في النار ليمنحه قوّة التشريط السريع، وتلقى الكوؤس من آنيتها بحذر. أشعل ورقة بيضاء ألقاها بداخل الكأس، ثم قلب الكأس فوق الجلد وترك الورقة تحترق بداخله على مهل. فَرّغ الاحتراق الهواء الطفيف بين الجلد وفضاء الكأس وأصبحت مساحة الجلد
المغطّاة خاوية من الهواء. في الخواء ذاك تتمدّد الشرايين، تبحث لذاتها عن متنفّس آخر. تهرب السموم من الحرارة لتنتفض في أماكن أخرى، وجميعها بالنهاية في حاجة إلى طبّ الحجّام.

نزع أبوها الكأس من فوق مبيض عالية الأيسر. شرح لها أنّ هناك ألمًا قادمًا. يتّبع القواعد حتى مع زبونة مستديمة مثلها. شرط الجلد بموسه المدلّل عرضيًّا وسطحيًّا قدر الإمكان، كأنّه يفتح مسامات الخواء التي صنعها لتوّه. تمتم ليعبّئها بأذكار عن البركة. تفتّحت الجروح على مهل ونفثت دمها الحارّ ببطء، فتغلّف الجسد بغلالة حمراء.

ذابت الحلوى في فم عبد الله وتآكلت أجزاء من عالمه الهلاميّ الذي صنعته حكاية رُقَيّة. توقّف عن دقّ الدفّ وظلّ يئنّ مع أنين عالية النائمة. أعطته رُقَيّة السكّر ولفّت حول عينيه قطعة دانتيل أسود شفّاف. فصل الدانتيل بين عالم عبد الله وعالم الحجرة. غابت الحجرة عن نظر عبد الله، وصارت الحجرة في عينيْ رُقَيّة بحرًا متماوجًا من دماء رقيقة غلّفت جانبيْ جسد عالية. تجلّطت الدماء في كتل. تحوّلت حمرتها الناصعة إلى دكنة.

من خلف غلالة الدانتيل، هدأ أنين عبد الله. غياب الدم عن عينيه جعل إيقاع الدقّ ينتظم كشجن متواصل أو كأغنية أسى أليفة. أعادت دقّات الدف إلى ذاكرة رُقَيّة أيّام علاج أخيها الأولى حين خضع لمشرط أبيه. ظنّ الأب أنّه بإمكانه إنقاذ الطفل من أن يظلّ طفلاً للأبد، وأنّ بإمكانه تغيير سحبة عينيه المنغوليّة، أنفه الأفطس وشعره الناعم. ذاكرة عبد الله الطبّيّة لا تتذكّر ألم المشرط بقدر ما تتذكّر الغناء الذي صاحبه. كانت بهجة حينها تقف إلى جوارهم وهي تمسك يده الصغيرة بيد، وتسخّن الموسى لزوجها باليد الأخرى. تغنّي لعبد الله حتى يطيب، لأنّ الجراح الأليفة كجراحه لا تتداوى بأنين، وإنّما بغناء. لكن طبّ الحجّام لم ينقذ ابنه، بقدر ما منح ذاكرة رُقَيّة الراحلة عن الطفولة، مشاهد مشوّشة لعائلة مجتمعة حول دماء ونار.

فصدت الجراح دماء عالية عند مواضع الألم. تشريط الحجّام أحدث المزيد من الوجع. كانت رُقَيّة تعرف أنّ الصراخ قادم لا محالة، أنّ جلسة ثانية ستحدَّد وملاءات أخرى ستتّسخ، وبقعًا جديدة ستتراكم. كانت عالية تستمرئ الصراخ. بعض الزائرات يطبن به وحسب. يمنحهنّ صراخهنّ المفتعل متعة مصطنعة بألم لطالما شكّت رُقَيّة في صدقه. أبوها لم ينهر يومًا صارخة، ولم يميّز بين صراخ مفتعل وصادق. كان معالجًا متقبّلاً لكافّة الأمزجة، حتى إنّ صراخ المتألّمات أسقط طلاء الحجرة البحريّة وأحدث في جدرانها شروخًا.

عادت الحمرة إلى وجه عالية بعدما نحرت حنجرتها بالوجع. حمرة قديمة كانت لخدّيها وهي في بدايات أعوامها العشرين استعادتها بجلسات الحجّامة راضية بالألم مقابل نقاء وشفاء قادمين. كانت حمرة خدودها إنجاز أبيها وكان يفاخر به، ولو على حساب تهدّم جدران البيت.

ناولتها رُقَيّة كأس حِلْبة صفراء وأمرتها أن تتجرّعه على مهل، وهي نائمة مغطّاة بكوؤس الهواء. حين فرغت من شربه، جاء أوان ثمار التمر، فأكلت واحدة تلو الآخرى، وراحت رُقَيّة تتلو ما بينها آيات من سورة مريم. استكانت عالية لصوت رُقَيّة، ارتفع السكّر في دمها، فانضمّت إلى عالم عبد الله الهلامي، وأصبحت رُقَيّة في الحجرة البحريّة مستودع سكّر يوزّع بهجاته على المريدين.

صبّ الحجّام بأذنيهما الإرشادات. اتّبعتها رُقَيّة، فضغطت على مهل حول جانب عالية الأيسر المشرط، وعلّمتها كيف تصنع ذلك بنفسها في منزلها، حيث ستصرخ وتفتعل المتعة وتمصّ بهجة التمر وارتخاء الحِلْبة، من دون أن تحدث شروخًا في جدرانها أو تشقّقات في طلاء بيتها. وقفت عالية على مهل بعدما مسحت رُقَيّة جانبيها المشرّطين بالكحول والروائح المعقّمة. محت عنها آثار

الدماء ولفّت جسـدها بملاءة لفّ سـوداء خفّفت حبكتها حول الخصـر واتّأدت في خطوها. ألقت نظرة أخيرة على حمرة وجهها في مرآة يد صغيرة تخصّها. لا مرايا في الحجرة البحريّة.

كانت عالية نزقة، تتعامل مع الحياة بترفّع من يحمّلها دين وجوده. ومع استجابة جسدها للسريان النشط في العروق، امتلأ صدرها ببراح جديد لا تسـعه الحجرة البحريّة، لذا ألقت ثمن الجلسـة في صـندوق إلى جوار عبد الله، فاصـطدمت العملات المعدنيّة بقاع الصندوق، وهي الإشارة ليكفّ عبد الله عن الدقّ ويرفع عن عينيه قطعة الدانتيل الأسود، مبتسمًا للمغادر كتحيّة وداع.

٢

من حيّ العطّارين ذاع صـيت الحجّام وامتدّت شـهرته نحو الأحياء الأخرى. أحاديثه وأعشـابه ووصـفاته، كانت مادّة رائجة في جلسات النميمة النسائيّة التي تنعقد كلّ عصر فوق أسطح المنازل وحول سبرتاية القهوة وأعقاب السجائر المختلسة. كان يجيء ذكر كراماته دائمًا في زيارات المرضـى، يميل الزائر على قريبه المريض ليبثّ في يده عنوان منزل الحجّام ويهمس: ما تقولش لعدوّك عليه... وأكياس البرتقال والجوافة شاهدة على الودّ المتبادل.

أوّل من شـهدتْ لطبّ الشيخ حسين، منذ سنوات مضت، كانت سنيّة الزوجة الثانية لسلامة العجلاتي. هاجم الألم أضـراس زوجها ليلاً، ومنعها صـراخه عن نومها الهادئ الذي تعزف فيه سـمفونيّتها باللحميّة الزائدة. قرّرت أن تحشـو فم زوجها بالدهان الأسـود، أعطاه له الشيخ في صلاة العشاء وأخبره: ده مسكّن قوي... كان سلامة متوجّسًا من الرجل الذي كان أعزب حينها واشترى البيت المهجور وسكنه بمفرده دون صحبة. كان سلامة العجلاتي هو السمسار بين الشيخ حسين وبين ملاّكي البيت القدامى، وكانت السلام عليكم التي يلقيها على الضيف الجديد في الحارة واجب لا مفرّ منه، فجاءت التحيّة مدغومة من آلام الضـرس، وتطوّع الشيخ بتقديم الدهان الأسود للتخفيف عنه. شكره، ولم يُلق الدهان في الشـارع خوفًا من أن يكون سـحرًا أو عملاً سفليًّا يعطّل أموره، لذا أخذه إلى زوجته حتى تحرقه في المبخرة وهي تقرأ عليه آية الكرسي.

أخفت سنيّة الدهان وأخبرت زوجها أنّها تخلّصت منه. أرادت الاحتفاظ بذلك السحر حتى تستخدمه ضدّ زوجها، لو فكّر في الزواج للمرّة الثالثة. لكنّها أمام صراخه المزعج، لم تجد حلاً سوى أن تجرّب عليه الدهان. إن كان مسكّنًا سيهدأ ويرتاحون جميعًا، وإن كان سـحرًا سيقصـف عمره وترتاح هي على الأقلّ. فتحت فم زوجها قهرًا وحشـته بالخلطة السوداء حتى عجز عن النطق بيمين الطلاق وقد كان قريبًا من لسانه، لكنّه أمتلأ بطعم حبّة البركة وبالبرودة التي شملت فمه ولها رائحة القرنفل، وظلّ يمتصّ المزيج اللدن حتى هدأت آلامه.

أخبرت سـنيّة جارتها، عنايات زوجة مبيّض النحاس، وهي تقترض منها بعض الثوم لأسـنان زوجها، أنّ دهان الشـيخ حسـين لجم لسان زوجها عن رمي يمين الطلاق، وربطه بميثاق غليظ فلن يتزوّج بعدها أبدًا.

كان محمّد، مبيّض النحاس، يعاني من آلام مستمرّة بالظهر. لكن ما أقلق عنايات هو نومه المبكر وعزوفه عنها ليلة الخميس. شرد ذهنها لأمور أخطر، وهي التي كانت تولي جسدها الممتلئ عناية خاصّة لأجل عيون ليالي الخميس. واظبت من صغرها على المفتّقة وملفوف الحلاوة الطحينيّة بالقشطة، لتمنح جسدها ثنيات وطبقات مرتجّة تفاخرت بها واكتسبت أهمّيّتها في حياتها بعدما صارت هي الطريق إلى قلب سي محمّد كما كانت تناديه بدلال.

كان محمّد يقضي اليوم بطوله دائرًا على المنازل ينادي... مبيّض نحاس مبيّض ـــــ طاسات ـــــ قدور ـــــ صواني ـــــ مبيّض... يتّخذ من الخرابات المهجورة على أطراف الحواري، مستقرًّا موقّتًا لتلميع النحاس. يترك الأواني التي طالها الصـدأ فوق الوابور حتى تصـبح حمراء سـاخنة، قادرة على إذابة الصـخر. يعاتب صـاحب الإناء على إهماله تلك الثروة الصـغيرة... كلّ دي زرنخة...فيه جوزات مش بتتوفّق على صـينيّة زيّ دي... يسـيل بداخلها القصـدير. ويأتي دور رقصـة محمّد. كانت آنيّة النحاس مسرحه وحركاته دائريّة قافزة ليوزّع القصـدير السـاخن بالتسـاوي على كلّ الإناء. ينثر على القصـدير روح الملح ليثبته، يفصـل ما بين قدم محمّد وجمر القصدير خيشٌ ملمسه خشن.

نهارات طويلة قضاها محمّد محاطًا بالحرارة والصدأ والخشونة، يجلي طبقات الأكسدة عن النحاس بالرقص الدائري المتواصل، وعنايات في المنزل تعتني بامتلاء جسدها احتفاء بليلة خميس قادمة. مرّ عليها الشهر، وليالي الخميس تضيع باردة في تدليك آلامه وفرك قدميه في الماء المثلّج بالملح، وفي التربيت على ظهره المواجه لها وهو نائم، أو يتصنّع النوم، كما هيّأت لها الظنون. بدا حديث سنيّة عن الدهان الأسود الذي لجم لسان زوجها، حلاً ملائمًا لعنايات حتى يبدأ زوجها مبيّض النحاس في معالجة المسكوت عنه.

كانت هناك إشاعات حول البيت الذي سكنه الشيخ منعت أهل الحارة عن الحديث معه كضيف جديد. تداولوا فيما بينهم أنّ بوّابة مهيبة توصل للآخرة مدفونة أسفل أعمدته الحجريّة. لكن رغبة عنايات في أن يطمئنّ قلبها كانت أقوى من ملاك الموت الذي عزل الحجّام عن أهل العطّارين.

ذهبت عنايات بزوجها إلى الشيخ حسين. كان مدخل البيت مظلمًا. استقبلهم صوت الشيخ محمّد رفعت وهو يقرأ قرآن العصر... (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ)... ظنّتها عنايات إشارة سماويّة واستمرّت في الصعود، بالرّغم من القبو المظلم وعتاب زوجها... حتودّينا في داهيه يا
وليّة... طرقوا باب الشقّة في الطابق الثاني. كان الباب مواربًا، فتحوه بهدوء. وجدوا الشيخ جالسًا على الأرض محاصرًا بأنواع شتّى من الخضار، كوسى وبطاطس وجزر، وقشورها مبعثرة من حوله، في عينيه دموع من آثار البصل وهو يحاول بشره في قطع صغيرة. أخبرهم... اتفضّلوا يا أهلاً وسهلاً... وهو يسحب بأنفه آثار الرشح التي حفّزها البصل على السيلان.

أكملت سنيّة مهمّة تقطيع الخضار للشيخ حسين، وتركته ينفرد بزوجها ليحكي عن الآلام وأسباب البعد. في الحجرة البحريّة خضع محمّد مبيّض النحاس لأوّل جلسة حجّامة على ظهره وبطول سيقانه، فانجلى عنه هو الآخر صدأ إرهاق الدوران الطويل في حواري الإسكندريّة المترامية الأطراف، واكتسب الشيخ حسين من يومها لقب الحجّام.

ظلّت عنايات مدينة للشيخ حسين بليالي الخميس، وهو مدين لها بأطباق الخضار المشكّلة وبذياع صيته. فكلّما حكت عن يده الخفيفة وأسراره، ازداد الراغبون في الحجرة البحريّة.

خارج الحجرة البحريّة، انتظرت امرأة ضخمة دورها. استند على كتفها زوجها. كان حجمها ضعف حجمه ولو تفتتّت، لصنعت من نفسها زوجتين من الحجم المتوسّط. كانت مشغولة بالتحدّث بحماس عن أغاني أسمهان الأخيرة في فيلمها غرام وانتقام، التي لم يتوقّف الراديو عن بثّها. ظنّت المرأة الضخمة أنّ أسمهان كانت تغنّي... إمتى حتعرف إمتى... للمخابرات البريطانيّة، وأنّ لعبة التمثيل والأفلام تلك لا تنطلي على ذكائها، فالكلّ يعرف أنّ أسمهان كانت جاسوسة.

خالفتها الرأي سيّدة في تايير كحلي تحرّك مروحة ورقيّة مرسومًا عليها نقوش يابانيّة. أخبرتها أنّ أسمهان ضحيّة مكيدة نسائيّة محكمة دبّرتها لها الآنسة أمّ كلثوم. سألت المرأة الضخمة رُقَيّة... ولا أنتي إيه رأيك؟... كانت رُقَيّة تروح وتجيء بينهم حاملة جرار العسل الجبلي لترصّها في الخزائن وفقًا لأوامر أبيها... شكلك بتحبّي أمّ كلثوم... تبرّعت صاحبة المروحة الياباني بالردّ بدلاً من رُقَيّة، فوافقتها الضخمة في رأيها مؤكّدة... أنتو يا شباب الأيّام دي كده ما تفهموش في الطرب... وأظنّ عاجبك اللون الأصفر اللي غرّقوا بيه البلد كمان... اختارت الحكومة أن تلوّن الأرصفة بالأصفر لتلائم الترام وسور الكورنيش. والشيء الأصفر الوحيد الذي كان لدى رُقَيّة هو ابتسامتها التي تجاهلتهم بها من دون ردّ.

خذلتهم رُقَيّة بعدم مشاركتهم ثرثرتهم، فعادت السيّدتان لحديثهما الخاصّ. عدّلت المرأة الضخمة من رأس زوجها الذي يميل كلّ ثانية على كتفها وقالت... قلبي واكلني على هتلر... سلامة قلبك يا حبيبتي... أصله لسّه يا دوبك مسلم جديد، حيصوم أوّل رمضان له إزاي بسّ... وقد كان نهار ألمانيا وفقًا لتقويم المرأة طويلاً.

سقط رأس الزوج مع تيّار الشفقة الذي انتاب المرأة الضخمة على هتلر. أيقظته السقطة، وعند ذكر هتلر، وقف ماذًا ذراعيه أمامه كتحيّة الألمان وهو يدعو للمسلم الجديد... يقوّيه على مين يعادينا... تحوّلت شفقة الضخمة على هتلر إلى غضب شديد من زوجها الذي يحرجها أمام الناس. جذبته بعنف من طرف السترة المهلّلة على جسده النحيل ليجلس، فاستجاب من دون مقاومة. كان إدراكه لفرق القوّة بينه وبين زوجته، أفضل من معرفته بفرق القوّة بين هتلر ومن يعادينا. جلس بوداعة إلى جوار كتفها الضخم، يصنع منها لرأسه الثقيل وسادة.

تمنّت رُقَيّة في هذه اللحظة لو ألقت بالجرار في وجوههم، وصعدت فوق طاولة الطعام وأخبرتهم... جاتكم نيلة... ثم تعود بعدها إلى الشرفة تستمع إلى أغنيات جارهم التي لا تنقطع. لكنّها ابتلعت ضيقها واستمرّت في نقل جرار العسل.

حملت رُقَيّة ملاءة جديدة إلى داخل الحجرة، فتحت الشرفة على اتّساعها لتجدّد الهواء وتعيد تجهيزها لاستقبال الضيف الجديد...

جلست إلى جوار صاحبة المروحة اليابانيّة شابّة أنيقة. ثم وبدون مقدّمات، شرعت في البكاء. هبّت المرأة الضخمة من مكانها باتّجاه الشابّة، انزلق زوجها من مقعده، برك على الأرض مسندًا رأسه على رجل المقعد. لم تهتمّ به زوجته فقد بدت الشابّة الباكية موضوعًا أكثر إثارة من قدرة هتلر على الصوم. أحاطت الضخمة عنق الشابّة بذراعها العريض... معلش يا أختي، مالهومش أمان... وظلّت تربت على كتفها وتنظر إلى صاحبة المروحة اليابانيّة لتحثّها على التهوية على وجه الباكية حتى تجفّف الدموع... مش راجل برضك؟... هزّت الشابّة الباكية رأسها موافقة، وشعرت الضخمة بالزهو من فراستها... أخرجت الشابّة منديل قماش من حقيبتها، ومرآة لتزيل آثار الكحل الذائب حول عينيها، وطلبت من التي تحيطها بذراعها... ممكن أدخل قبلكم يا أبلة... صدمت كلمة أبلة أذن المرأة الضخمة، فحرمتها من حضن الحنان الذي تمنحه وبذراع واحد فقط حول الرقبة، عادت لترفع جسد زوجها النحيل عن الأرض وتسنده على كتفها من جديد... ما كانش يتعزّ يا روح أبله،
أنا تعبانة ومذنبة الراجل ده معايا... كانت صاحبة المروحة الياباني تغالب ضحكات مكتومة، وإن كانت ما تزال تهوّي باتّجاه الوجه الباكي، نظرت إليها الأنيقة... ولا قبلك يا نينة... توقّفت حركة المروحة في يديها وردّت بتلقائيّة... إحيه عليكِ... بدت كلمة نينة انتقام ملائم من أبلة، لذا تركت الضخمة زوجها من جديد وعادت للجلوس إلى جوار الشابّة، تستدرجها لتحكي عن أسباب رغبتها الطارئة في مقابلة الشيخ.

حكت الأنيقة حكايتها كاملة بتنهيدات ولوعة. تعاطفت معها الضخمة ووازنت حكايتها برأسها، وأخبرتها... بسّ حاجتك ما تنقضيش هنا... كانت الضخمة متردّدة دائمة على زيارة الحجّام، تعرف ما يعالجه وما يأنف عن ممارسته، وأرادت أن توفّر على الشابّة الطريق الطويل وترشدها نحو شيخة ستفيدها أكثر. لكنّ الشابّة أصرّت أن تجرّب سؤال الحجّام علّها تستميل قلبه لحكايتها... أنتي حرّة... وأرادت أن تلقي بحملها على صاحبة المروحة الياباني... ما تدخليها قبلك؟... لكن صاحبة المروحة لم تغفر لها نينة التي وصفتها بها، ورفضت.

عادت الأنيقة للبكاء من جديد، ومع بكائها لم تجد الضخمة بدًّا من أن تأخذ دورها بحقّ الأخويّة السرّيّة بين النساء البكّاءات سريعًا. خرجت رُقَيّة لتنادي على المرأة الضخمة وزوجها. لكنّ الضخمة أخبرتها أن تدخل الفتاة أوّلاً. أدخلتها رُقَيّة وأغلقت الباب خلفها. لم تكن تكترث كثيرًا بالترتيب، فليدخل من يدخل، ما يهمّها هو انتهاء اليوم.

فتّشت رُقَيّة في درج عن مفاتيح الخزانة التي بها المقادير الأوّليّة. مع كلّ زيارة أولى، كان أبوها يصف أعشابًا واسعة المدى يمكنها أن تداوي أكثر من عارض في المرّة الواحدة. نعناع وجينسنج، حبوب اللقاح والحبّة السوداء. يخلط كلّ ذلك بالخميرة، فيصنع معجونًا قابلاً للمضغ. جلبت رُقَيّة علبة المعجون المعتادة للزيارات الأوّليّة.

كانت النبرة الغليظة ما تزال عالقة بحنجرة أبيها. جذبها صوت صياحه المنبعث كأنّه طوق حول رقبتها كلّما سمعته انجرفت بعنف إليه، ربّما خوفًا، أو اعتيادًا، لكنّ النتيجة واحدة فهي لا تسمع النداء دون أن تلبّي.

فتح الحجّام باب الحجرة البحريّة ونادى بعزمه على ابنته. همست الضخمة في أذن زوجها... بيجيبوا لنفسهم الكلام... النحيل انتبه مجدّدًا على صياح الحجّام وقام يؤدّي تحيّة الألمان... يقوّيه على مين يعادينا... أجلسته زوجته مجدّدًا... يا راجل إتلهي...

حكت الأنيقة للحجّام أنّها متزوّجة منذ أربعة أعوام ولها طفلة تشبهها. كان الزوج يرى كلّ النساء جميلات ولا يتوقّف عن الإعجاب بخصر جارة، أو ببياض ذراع أخرى وهي تنشر غسيلها. كلّما سمعته يتغزّل بنساء غيرها تنبت لها شعرة بيضاء. وعندما سمعت عن الحجّام، جاءت ليصنع لها حجابًا يعمي عين زوجها عن الأخريات. كان الحجّام يتعامل بجدّيّة مع عمله، يروّج لذاته على أنّه عالم وعارف. يمقت الدجّالين ويفرّق بين السحر والتاريخ الطويل للأعشاب التي شكّلت أجسادنا وخفّفت آلامها. استاء بشدّة أن تطلب واحدة مثلها منه حجابًا وهو القادر على علاج شيب شعرها. طلبت منه مرضًا لعين زوجها، فألقى بلومه على رُقَيّة دون أن تفهم هذي الأخيرة أين تراها أخطأت.

كان واقفًا على باب الحجرة البحريّة يصيح في رُقَيّة وظلّ المرأة بالداخل تجفّف دمعها... مش تعرفي مين داخل ومين طالع، ولاّ هي وكالة من غير بوّاب... صاحبة المروحة الياباني تختلس النظر إلى المشهد، ورقيّة صامتة توزّع نظراتها بين أبيها والمروحة والظلّ الباكي. شعرت رُقَيّة بجفاف الحلق من جديد وملأ الطعم المرّ فمها ولجم لسانها عن التكلّم. انسلّت الأنيقة بين الحجّام وابنته بعد أن بدا لها الصياح شأنًا عائليًّا يفضّل عدم التدخّل به، ثم انحنت على أذن المرأة الضخمة... كلمة يا أبلة... تبعتها الضخمة على السلالم، فطلبت منها عنوان الشيخة... شارع الستّ نعيمة في المنشيّة بيت نمرة ٧... أخبرتها أنّ سرّها نافذ، فقد ذهبت إليها في

أوّل زواجها حتى تعمي عين زوجها عن الأخريات وقد نجحت، وها هو رجلها لا يجرؤ على النظر إلى أيّ امرأة أخرى، ولا حتى إليها هي.

٣

عندما سكن الشيخ حسين الحجّام العطّارين، كان البيت ضمن خطّة محكمة لطمس تاريخه القديم في رشيد، وبدء حياة جديدة. لم يشتر أرضًا في سيدي بشر أو المندرة، كما فعل النازحون من محافظات وجه بحري، ولم يؤجّر شقّة في كرموز تصلح لعازب، كما فعل القادمون من الصعيد. قرّر أن يكون اسكندريًّا فاختار حيًّا نابضًا في قلب المدينة يصله بمفاصلها. دقائق قليلة بالحنطور أو سيرًا على الأقدام، ويجد نفسه في وسط البلد، قريبًا من شارع النبي دانيال المؤدّي إلى محطّة مصر، وقريبًا من شارع فؤاد المؤدّي إلى محطّة الرمل. وعند السير في الشوارع الطوليّة المتعامدة، يصل إلى طريق الكورنيش ومنه يتّجه غربًا نحو مجمّع المساجد، لينتقل من صغر الزاوية التي كان أبوه إمامها في رشيد، إلى براح الأولياء حول المرسي أبو العبّاس.

ولبيت الحجّام تاريخ مخيف مع الموت، بدأ بانتحار حفيد عائلة شندي طائرًا من الطابق الثالث نحو جاذبيّة الشارع. عائلة شندي التي أنشأت هذا البيت كانت تعمل في زراعة القطن وبيعه. كانت من طبقة اجتماعيّة أعلى من باقي سكّان الحارة، لا تخالط سيّدتها نساء الحارة، ويصلّي جدّهم الكبير صلواته في مسجد العطّارين، مكتفيًا بالسلام عليكم وعليكم السلام من دون أحاديث مطوّلة. كان من المشاهد اليوميّة في الحارة، مشهد الجدّ العجوز عائدًا مع حفيده من صلاة العشاء يتبعهما حمادة صاحب ألبان الأرض الطيّبة وعلى رأسه صينيّة بها طواجن الزبادي بعدد أفراد الأسرة: الجدّ وابنه، زوجته وحفيديه المراهقين، الفتى الهزيل الذي يصحبه للصلاة، والفتاة النسخة المصغّرة من أمّها. كانت عائلة شندي تعطي حمادة لبنها الخاصّ ليصنع لهم طواجن الزبادي عمولة، فحتى في طعامهم كانوا غرباء عن أهل الحارة.

طراز البيت كان عصريًّا، أعمدة الشرفات حجريّة منقوش عليها ورود وتماثيل صغيرة لكيوبيد الإغريقي، ولم تكن له مشربيّات من الخشب كباقي بيوت الحارة. كانت عمارته المختلفة تحيطه بسياج الغربة، وعزلة ساكنيه تنسج من حولهم الشائعات والأقاويل. ظنّهم المعلّم عطيّة صاحب مقهى اللمة الحلوة، هاربين من ثأر متأجّج في الصعيد. لكنّها كانت حكاية هروبه الخاصّة التي لا يملّ من حكي تفاصيلها ومقارنتها بكلّ حكايات الهروب التي يسمعها. سلامة العجلاتي المتزوّج من اثنتين نفى عنهم بشدّة إشاعة الثأر. كانت حجّة سلامة الذي يرى الحياة عبر النساء أنّ لهجة السيّدة تشبه لهجة أهل بحري وبشرتها وبشرة ابنتها البيضاء المشربة بحمرة تدلّ على أنّهم لا يمتلكون جذورًا جنوبيّة... البطّ ده بحراوي مش أسواني.

كان ابن عائلة شندي موظّفًا كبيرًا في بورصة القطن، يلهب خيال الحارة بالماركات المختلفة للسيّارات التي يتّسع لها شارعهم الجانبي على مضض، سيّارات الفورد والمرسيديس بينز التي توصله إلى بيته نسبته في خيالهم إلى علاقات غير معلنة بالقصر ورجاله. تقوى علاقاته بالباشوات أحيانًا، فتسدّ شارعهم سيّارة حديثة، وتتهدّل أحيانًا أخرى فيعود الموظّف إلى البيت في حنطور. بالنسبة إليهم، كان عدم استقرار أموره مع السلطة مبرّرًا كافيًا لسكن عائلة شندي في حارتهم المنسيّة.

ذات يوم، استيقظت الحارة على المراهق ساقطًا من الدور الثالث ودماؤه من حوله مسكوبة ككوؤس شربات الفراولة. عدا أنّ الموت في أذهانهم كان محصورًا بالعجائز، فهم لم يعتادوه اختيارًا. الموت في عرفهم قضاء وقدر. لم يتورّط المراهق الحزين في صداقات مع أبناء حارته. عرفوه كشبح هزيل يسير في ظلّ جدّهم بعد صلاة العشاء. فاجأهم صباحًا بقفزة حرّة أودت بحياته ليخبرهم أنّه كان هنا وقرّر إنهاء وجوده هذا.

واصل أهل الحارة نسج الإشاعات من حول بيت عائلة شندي. كانت أقواها والتي اتّفق عليها عطيّة وسلامة وحمادة في القهوة، أنّه مسكون بجنّ يشبه تماثيل كيوبيد المتناثرة على الأعمدة. ثمّة جنّي أغواه حتى الموت، وقد أكّد حمادة على أعراض إصابته... حتى عينه كانت زايغة... وصدّقوه بسبب درجة اقترابه من الحفيد وقت صينيّة الزبادي. لم يذكر أحد الاكتئاب كمسبّب للموت، فهذا ليس مبرّرًا كافيًا في حواري العطّارين.

رحلت عائلة شندي بعد ذلك إلى القاهرة، تاركة وراءها البيت المهيب مهجورًا. إلاّ أنّه ظلّ بوّابة عبور أفراد العائلة نحو العالم الآخر. فعندما مرض الابن، عادوا إلى هواء الإسكندريّة الندي الذي لم يطبّب صدره الهزيل، فتوفي بنزلة شعبيّة حادّة لم تستطع

رئته المنهكة مقاومتها. ولم يمرّ العام، حتى توقّف الجدّ عن صلوات العشاء، وتوقّفت صينيّة طواجن الزبادي التي تتبعه، ولم تعد السيّارات الغالية إلى سدّ شارعهم الجانبي. زالت كلّ طقوس الغربة التي وصلتهم بالحارة، باستثناء عمارة البيت المهيبة، فعرضتها أمّ المراهق المنتحر للبيع.

عندما تطوّع سلامة العجلاتي للمساعدة في نقل جثمان الجدّ هابطًا من الطابق الثاني نحو الشارع،
كان أوّل من يزور البيت من أهل الحارة وآخر من رأى سيّدة عائلة شندي، فقد كان حلقة الوصل بينها وبين السماسرة. تاريخ الموتى الثلاثة، أبعد المشترين عن عتبتهم. حتى جاءهم الشيخ حسين الحجّام محاولاً أن يجتزئ لنفسه مكانًا في الإسكندريّة. عرض مبلغًا زهيدًا لا يناسب قيمة البيت. قبلت به الأرملة، وكانت لتقبل بأقلّ منه فقط لتغلق بوّابة الموت التي تلتهم عائلتها.

السكن في حيّ العطّارين كان اختيار الحجّام الواعي، لكنّ البيت الكبير كان رزقه من السماء كما يقول دومًا، وإشارة استجابة ورضا من الربّ لصلوات كثيرة، دعا فيها أن يمنحه الله أرضًا جديدة بعيدة عن سمعة أبيه الطيّبة التي تطارده. كلّ فعل للحجّام في رشيد كان منقوصًا أمام نبوغ أبيه وعبقريّته. رحل عن البلدة التي رأته نسخة غير مكتملة عن أبيه الأزهري، صاحب الشهادة العالميّة، إلى مدينة واسعة تجهل كلّ شيء عنه وعن أبيه. أراد التعلّق ببداية جديدة، وجاء البيت بتاريخه مع الموت، ذلك التاريخ المؤلم لأصحابه والمخيف للمشترين، ملحميًّا للحجّام. تجنّبه أهل الحارة في بداية سكنه وأورثوه عزلة عائلة شندي. لكن سنيّة وعنايات أذابتا من حوله وهم الخوف بعد أن منحتاه مهابة الأولياء.

٤

يهرب المتوحّدون إلى أماكن خفيّة تحتوي أجسادهم كحضن. يجدون راحتهم خلف الأرائك المهجورة وتحت سرائرهم أو في أركان الحجرات المظلمة. تطمئنّ أرواحهم في المساحات الضيّقة، فيهربون إليها بإرادتهم كما لو كانت مقابر سرّيّة للحياة، وليس للموت. كانت رُقَيّة تصنع لنفسها تلك الأماكن الخفيّة بمهارة في بيتهم العتيق المكوّن من ثلاثة طوابق حيث ترتبط كلّ مرحلة من حياتها بطابق.

كان القبو (البدروم) يقع أسفل مستوى الباب الرئيسي، له سلّم دائر بدون درابزين، يختفي الحجّام بداخله بعد الانتهاء من عمله. وكان الطابق الثاني مكوّنًا من خمس حجرات واسعة عالية السقف، بنوافذ طويلة لها شيش خشبي تمنح البيت شمسه بسخاء. في حجرة الحجّامة شرفة رحبة تسرّب مع حرارة الشمس نفحات هواء رطبة تعادل بنسيمها حرارة الوابور الذي يستعمله الشيخ حسين الحجّام في تعقيم الموسى وحرق أوراق الذِّكْر. بين كلّ جلسة وأخرى، كانت رُقَيّة تفتح شيش الشرفة على اتّساعه لتطرد الأنفاس المتألّمة بأوكسجين طازج، فتعبّ الشرفة المفتوحة من الهواء أمواجًا. لم يسمّها الزبائن حجرة بحريّة من فراغ.

لم تكن رُقَيّة الطفلة تهاب القبو قدر ما هابته من ثم رُقَيّة الشابّة. كانت في صغرها تلتقط ذيل جلباب أبيها وتتبعه على درجات السلّم المرصّعة بظلال الشموع الطويلة. كان أبوها مصرًّا على إضاءة المكان بشموع طويلة كالتي يمسكها الصغار في حفلات السبوع، لتمنح قبوه الرطب حرارة وضوءًا خافتًا.

قضت رُقَيّة ساعات طويلة من طفولتها تراقب أباها وهو يسكب المشروبات الملوّنة، كركديه وحلبة وعرق السوس، في قارورات زرقاء وحمراء. يضيف مساحيق ويطحن حبوبًا، يمزج مكوّنات إلى بعضها بعضًا ويقطر سوائل على البخار والنار، متمتمًا قبل كلّ خطوة «يا الله، يا وليّ الصابرين».

كان أبوها في عينيها شبيهًا بالسحرة الطيّبين في حكايات أمّها، مطابقًا للمواصفات بلحيته الطويلة وتعويذاته التي يهمس بها سرًّا في أذن مقاديره. كان كبير سحرة المملكة المصنوعة كلّها من الحلوى، وقد عزّز مكانته السحريّة بألوان عمائمه البنفسجيّة وروائحه السخيّة الدافئة التي لا تفارق محيطه.

أثناء عمله الليلي في القبو، كان يحكي بظلاله حواديت من رسوم متحرّكة على الجدران، بعضها من صنع خيال رُقَيّة المتعطّش، وبعضها من الظلال المنعكسة لنيران الوابور المشتعلة، وللقوارير ولرأسه ولحيته تتحرّك مع أقلّ نسمة هواء تمرّ على ضوء

الشموع. كانت رُقَيّة تتخيّل معارك تدور ما بين الظلال، ورقصات وجيوشًا تنتصر وتهزم. كان للقبو في صغرها نسخة متخيّلة مرحة على الجدران.

عندما أوشك طول رُقَيّة على بلوغ طول أبيها وصارت ظلالهما متساوية على جدران القبو، قرّر أبوها أن تصير مساعدة له. كان يسرد عليها الأعشاب بفوائدها وتنساها، يعلّمها طرق التقطير، وتحرق له الأواني. كانت الظلال التي صنعتها إلى جوار ظلال أبيها على الحائط، مرتبكة ومهتزّة. لم تمتلك شغف أبيها بالكيمياء، وصارت تكره القبو بعدما نزعت عن حوائطه الخيال.

كانت المسافات التي تتحرّك فيها بهجة زوجة الحجّام ببيتها محدودة. فلا هي تنزل إلى القبو ولا تصعد إلى السطح، كانت كالمحاصرة في غرف الطابق الثاني. اعتادت بهجة على ارتداء الملابس السوداء، فلا تذكر رُقَيّة المرّة الأخيرة التي رأت فيها أمّها في فستان مشجّر، أو في جلباب منزلي فاتح. اعتادت على جسد أمّها الملفوف بالأسود وهو محاط بقطع القماش الملوّنة من الستان والحرير الشفّاف. كانت بهجة تخيط ملابس السيّدات والعرائس في حجرتها، تقصّ وتخيط ملابس الفرح والحزن بالتساوي، وكان الشعور الدائم المسيطر عليها هو الصداع.

توقّفت بهجة عن الصعود إلى سطح منزلها، عندما توقّفت عن تربية الدجاج في العشّة الخشبيّة. صنعت تلك العشّة بنفسها من ألواح كرسي قديم وبعض أقفاص الفاكهة.. رأت بهجة دجاجاتها حول الطشت تنقر الأرض بحثًا عن طعام، فسكن في قلبها هاجس أنّها تشرب دماء روّاد الحجرة البحريّة الساخن. أنفت منها مثلما كرهت كلّ ما له علاقة بالحجرة البحريّة. هجرت العشّة، ولم تعد تربّي بها الدجاج...

صنعت رُقَيّة من عشّة الدجاجات المهجورة خيمة سرِّيّة. غطّت العشّة المستطيلة المصنوعة من الخشب بملاءة قديمة، أخذتها من أبيها بعدما توقّف عن فرشها على منضدته الزجاجيّة. احتضنت الملاءة المهترئة وحدة رُقَيّة في مخبئها ومن حولها بقع المتألّمين التي لم تمحَ.

بمخزون متجدّد من الشمع والسوداني الأسواني المملّح، كانت رُقَيّة تقضي وقتًا طويلاً من ليلها مختبئة في الخيمة السرِّيّة. ترسم من الذاكرة ظلالاً كالتي أحبّتها في القبو. كان وقت الرسم، هو وقت رُقَيّة المخصّص بعد يوم طويل موزّع بين مهامّ أمّها وأبيها.

كانت ترعى في وحدتها ريحانة بالقرب من الخيمة، أسقطت عليها عطرًا. نزع العطر عن العشّة رائحة الدواجن. رُقَيّة شذّبت فروعها، وسقتها. ظنّت أنّ الموسيقى قوّت من صلب نباتات الشرفة بالطابق الثاني، فغنّت لها الأغنيات التي سمعتها من جرامافون جارهم. كانت الريحانة صديقة رُقَيّة التي تشاركها الصمت. زرعتها دون علم أبيها، بعدما أضاعت سماده الذي لا يزرع نابتًا بدونه. شعرت بألفة نحو تلك النبتة التي لم يفرض عليها أبوها سيطرته الكاملة. بدت لها فروعها ضعيفة، تقاوم لتبقى منتصبة، مع أنّ رائحتها القويّة أوهمت رُقَيّة أنّها نجحت في رعايتها، إلاّ أنّ أعوادها كانت تسقط أوّلاً بأوّل. كانت الريحانة هشّة وحزينة. وبقيت أسرار سماد أبيها أسرارًا.

كان شارع رُقَيّة سيّئ الحظّ لم تكلّف البلديّة نفسها عناء تسميته. قطعه العابرون سريعًا، ودهسه ساكنوه بملل. حتى الترام الأصفر الذي صادق أحياء المدينة الفقيرة، بخل على شارعها فدار من حوله دون أن يقطعه. رافق صوت قضبانه ليل رُقَيّة، فكان مثله مثل كلّ الأشياء التي أحبّتها... قريبة منها وبعيدة عنها بالتساوي.

كانت رُقَيّة تستقلّ الترام في مشاوريها المتباعدة التي تذهب فيها إلى السوق. أحبّت تلك اللحظات التي تصعد فيها على سلّم الترام ويرنّ بكعبها الخلخال الفضّي. لم تخرج من بيتها إلاّ والخلخال الفضّة في رسغها. اشترته من قارئة كفّ بالقرب من القلعة، ونهرتها أمّها عندما عادت به إلى حجرتها... نصبت عليكِ الوليّة، قال فضّة قال... لم تخبر رُقَيّة أمّها أنّ للخلخال حكاية. تنبّأت لها قارئة الكفّ أنّ رنّته ستنادي على منقذها. ومع أنّها لم تفهم ما المنقذ وممّ سينقذها، فهي لم ترد أن تفوّت على نفسها فرصة المرور بجواره عابرة، دون أن تسمعه نداءها...

قبل صعودها إلى الترام، كانت تشتري الذرة المشويّة وتجلس بالقرب من النافذة تاركة شعرها للهواء. عندها تنساب في عينيها مشاهد البيوت والحناطير والباعة الجوّالين، تراقب من جلستها تلك الشوارع والخلق، فيذوب شعورها بالغضب وتتلاشى مرارة حلقها وتبدو أنّها قادرة على الكلام من دون توقّف، وكأنّها تداوت من الصمت الذي يراودها كلّما سمعت صياح أبيها. لم تكن تجد في جلستها أحدًا لتبادله الحديث، وكان خجلها يمنعها من بدء حوار مع غرباء.

كان سليم الكمسري على خطّ محطّة الرمل ـــــــ بحري يسكن في شارعهم. رأته أنيقًا في زيّه الأزرق الرسمي وأرادت أن تختبر رنّة خلخالها الفضّة على أذنه، فكانت تصعد من الباب الذي يقف إلى جواره، لكن رنّة الخلخال كانت تضيع في صخب الصاعدين والهابطين. وحتى عندما تمدّ يدها بثمن التذكرة، لم يكن يبدو عليه أنّه يراها أو يسمعها. كانت كأنّها شبح خفي.

كانت تعود من السوق مشيًا، تمرّ في طريق عودتها على المراكب المقلوبة التي لم يخرج بها أصحابها للصيد، أو تلك التي يدهنها أصحابها بالطلاء الطازج، فتشيع رائحته في أنفها سعادة. كلّ صاحب مركب كان يكتب بالطلاء تعويذة حمايته الخاصّة حتى يرقّ قلب البحر الواسع على مركبه الصغير... ع الله... الرزق يحبّ الخفيّة...

السير البطيء أمام الفنادق المتناثرة في محطّة الرمل كان غواية رُقَيّة. سوفيتل سيسل... الكرنك... متربول... مدخل فندق ويندسور بالاس كان زجاجيًّا أتاح لها متابعة نزلائه وروّاد مقهاه السفلي. تمنّت لو تجلس في بهو الفندق، تتشارك كوب القهوة مع الإنجليزي الذي يقبّل يد سيّدة تجلس أمامه. ماذا لو سمع سليم رنّة خلخالها وأعجبته، ونظر إلى عينيها وهي تدفع له ثمن التذكرة، فطلب منها أن يشربا سويًّا فنجانًا من قهوة مطحن سيفانو باولو؟ ستتمنّع في البداية وسترافقه في نهاية الأمر، وتخبره أنّ قارئة الكفّ تنبّأت بقدومه، أنّها ترسم سرًّا وتهوى رائحة البنّ أكثر من طعمه، إنّه أنيق في زيّه الرسمي، وأنّ لديها ربّما هوسًا بكلّ الأزياء الرسميّة، لكن زيّه هو الأفضل بينها. ماذا لو وجدته إلى جوارها عندما يداويها هواء الترام من نوبات الخرس؟ ربّما كانت رُقَيّة ستصبح أسعد، وربّما تبدأ في التصالح مع أوامر والديها، وتتوقّف عن حمل تبعات فراقهما الضارب في أعماق البيت... لكن رُقَيّة كانت شبح سليم الخفيّ، روحًا محلّقة من حوله كتحليقها فوق روّاد فندق ويندسور بالاس، تراقبهم وما بينها وبينهم حجاب زجاجي شفّاف.

لم تخرج رُقَيّة إلى السوق منذ فترة طويلة، ولم يكن خروجها بالأمر الهيّن. كانت تدبّر له حتى يطلبوه منها فتقوم برحلتها القصيرة. أخذت مخزون المطبخ من الفلفل الأسمر ومخزون أمّها من الترتر، وصعدت بهما نحو مخبئها على السطح. رسمت بالترتر لوحة لامعة لتنّين مجنّح يطير على قلوب الصغار وهم نائمون ليحميها من الخوف. قرّرت نثر الفلفل الأسود من السطح.

حلّت رُقَيّة ضفيرة شعرها وهي تراقب الجالسين في مقهى اللمّة الحلوة. كانوا يلعبون الطاولة بجدّيّة
محرّري العالم من الجريمة، ولم تكن تفهم ردود أفعالهم العنيفة لفوز أحدهم على الآخر. ما عدا سليم الذي يتّئد في لعبه... لماذا لا ينظر نحوها إلى الأعلى؟ كانت تحلّ جدائلها، كانت تبدو أجمل.

ظلّت تتابع بملل سير الحياة في ليل شارعها... عبده الصغير الذي يعمل لدى حماده في ألبان الأرض الطيّبة، يدور بصينية الزبادي والمهلّبيّة يوزّعها على المشترين، ويتلقّى منهم الثمن والصفعات. عرفت رُقَيّة أنّ الساعة أوشكت على الثامنة من المذياع. انتهت وصلة إنشاد الشيخ زكريّا أحمد. كانت ترى المعلّم عطيّة صاحب المقهى غبيًّا، فالرجل طرق على مذياعه عندما صمت الإنشاد فجأة كأنّه يوقظ الرجل الصغير الساكن بداخله. وسلامة العجلاتي كعادته متحفّز يتابع بعينيه أيّ أنثى أوقعها حظّها العاثر ودفعها للعبور بجواره... أحبّ البطّ... ردّدها لتلحق بكعب سيّدة عابرة لا يعرفها. فكلّ الغريبات عن الحارة هدف مباح لحبّه وغزله، إذ كان يخاف التغزّل بفتيات الحارة خوفًا من رجالها. لكن رُقَيّة كانت تعرف ولعه بسامية ابنة محمّد مبيّض النحاس، كانت ترى تلك اللمعة في عينيه عند عبورها من أمامه، فيتوقّف عن تعبئة عجلاته بالهواء ويغنّي أيّ طقطوقة لسيّد درويش. كان يخصّها بأغانيه ويمنح الأخريات... أحبّ البطّ...

لم تكن رُقَيّة تفهم ما الذي لدى سامية ولا تملكه هي. كانت سامية تجتذب عند مرورها من أمام المقهى كلّ العيون وتحفّز في حناجرهم الغناء... ما تمتلكه سامية أرادته رُقَيّة لنفسها واشتهته في وقفتها العلويّة تلك وهي تنثر الفلفل الأسود على شارعهم وتتمتم بالكلمات التي قرأتها على المراكب... ع الله...

رأتها سكينة أمّ سليم من النافذة المقابلة، الأرملة التي عكفت على تربية وحيدها. سكينة قرأت المعوّذتين وهي تردّ المشرّبيّة الخشب في وجه رُقَيّة. حافظت سكينة في قلبها على الخوف من بيت الحجّام وساكنيه. ما زالت تسمّيه بيت شندي وتعتقد أنّ بوّابة الموت لم تغلق أسفله بعد... كانت سكينة آخر من رأى حفيد عائلة شندي على السطح، وأوّل من رأى جسده الميت على الأرض.

٥

خطّط دينوقراطيس الإسكندريّة كرقعة شطرنج تتوازى شوارعها وتتقاطع، لذا لم يملك أهلها سوى أن تتوازى مصائرهم وتتقاطع بالمثل. عند الخروج من شارع الحجّام والسير في حارة الصالحي، يفصل صفّ من البيوت المتوازية مع صفّ المقاهي اليونانيّة والإيطاليّة، العطّارين عن شارع فؤاد الأوّل، حيث تستند ظهور البيوت على ظهور المقاهي ويجعل انحراف صغير في السير عند نادي محمّد علي، الماشي يتنقّل بين عالمين.

في ظهر منزل الحجّام، يقع مقهى سيليني الإيطالي لصاحبه الخواجة ألبيرتيني وأبنائه. كان سيليني في زمن آخر مطعمًا مشهورًا بأسماكه المطهوّة بالحُبّ. توفّيت زوجة الخواجة ألبيرتيني، فتوقّف سيليني عن تقديم الأسماك وتحوّل إلى مقهى عاديّ يقدّم المشروبات وأصناف الحلويات الإيطاليّة. تعلّم ألبيرتيني الخَبز من أمّه، في منزلهم القديم بشبرا. ثم تعلّمته بيتا ابنته على يديه. كانوا يدينون بالفضل للحلويات التي حافظت على زبائنهم، فلولاها لصار مقهى سيليني مهجورًا كقلب ألبيرتيني.

ورثت بيتا سمعة المقهى الطيّبة، التي صنعتها أمّها، وعملت على استعادتها. صار سيليني استراحة لطيفة تقدّم الكونياك والقهوة والحلويات، للإيطاليين واليونانيين والإنجليز والأرمن والشوام وأولاد البلد الأغنياء، وحتى لأصدقائها من العمّال.

لم يرث جابي، ابن ألبيرتيني، ولا بيتا، حبّ الطهو عن والديهما. لكن بيتا تحمّلت المسؤوليّة بطبعها الصبور، بخلاف جابي ضيّق الخلق الذي يتبرّم منها سريعًا بحيث كان يترك أخته بمفردها أمام الفرن، فيختفي مسدلاً عليه ستائر الحجرة الخلفيّة.

في ما مضى، كانت تلك الحجرة معملاً لتحميض الصور. حافظ عليها ألبيرتيني كما هي، بضوئها الأحمر الخافت وأحواضها الواسعة. جدّد جابي أدواتها الكيميائيّة، وإن لم يكن مواظبًا على التصوير والتحميض، فقد كان يعاوده الشغف بها أثناء خَبز فطائر المقهى أو طحن البنّ. عندما وزّعت بيتا العمل في المقهى بينها وبين أبيها وأخيها، كلّفت جابي بأمور الشراء، فكان يخرج باكرًا لجلب الدقيق والسكّر والفانيليا من سوق شيديا والبنّ من مطحنة سيفانو بلو في محطّة الرمل.

جعلت بيتا الحسابات مسؤوليّة أبيها الوحيدة. كان يعمل وإلى جواره سيّد الشاعر. يسأله ألبيرتيني عن حاصل ضرب سبعة في ثمانية، وعن أخبار الحرب وأسعار السكّر والبطاطس في السوق السوداء. فيجيبه سيّد فيما تتنقّل عيناه ما بين بيتا والورقة البيضاء التي أمامه. ينهي أكواب القهوة الواحد تلو الآخر، ويقضي نهاراته هكذا حتى يرأف القلم بحاله، فيكتب بيتين من الشعر ويهبّ من مقعده صارخًا... اسمع دي كده سينيور ألبيرتيني... ثم يتلو ما كتب وهو يصيح بأعلى صوته في أذن ألبيرتيني ليصل إلى بيتا البعيدة، حيث كلّ أزرق في القصيدة هو لعينيها الزرقاوين. تتحرّك بيتا بين البار والفرن في المطبخ الداخلي، وشعر سيّد يلاحقها كسارينة إسعاف... وعيناكِ موج يسبح في ليلي الليلكي، وأنا الغريق في قطرات مطر حبّك...

يضحك ألبيرتيني من كلمة سينيور التي يناديه بها سيّد، ومن صياحه بالكلمات الليلكيّة التي لا يفهمها. لكن سيّد الذي لا يستسلم، يجلس أمام ألبيرتيني ويسهب في شرح الدلالات والمعاني المخبّأة في بطنه على اعتبار أنّه شاعر.

نادى سيّد على بيتا. كانت تقدّم فطيرة الجبن بالريحان لخالها بيلوتشي الجالس خلف منضدة مجاورة... «سمعتي القصيدة سينيورة بيتا؟»... فضمّت بيتا أصابعها وقبّلتها ثم نفخت في الهواء لتطير القبلة باتّجاه سيّد. ذاب سيّد عشقًا، فارتشف قهوته سريعًا وغرق قلمه في الكتابة مجدّدًا. أحبّ الخواجة ألبيرتيني قصّة عشق سيّد لابنته لأنّها كانت تنهي مخزونهم من البنّ التركي أوّلاً بأوّل. وعندما تنتفخ محفظة سيّد، يسحب الكثير من علب سجائر كوتاريللي المستوردة.

غمز بيلوتشي بعينيه ابنة أخته ومازحها قائلاً إنّها ورثت عن سيلڤانا المقدرة على تحطيم القلوب، لكنّها لم ترث جودة الطهو. فتحدّته بيتا قائلة إنّها ستعدّ له طبق سيلڤانا المميّز، على طريقة قريتهم كالابريا. كان هذا الأسبوع الثالث لوجود بيلوتشي في الإسكندريّة، ومع ذلك، فقد كانت بيتا تشعر بالألفة تجاهه. وكأنّه عاش بينهم دائمًا، وقد علّقت عليه الكثير من الآمال لمعرفة المزيد عن والدتها وقريتها وعائلتها، إذ كان كلّ ما يخصّهم ممزوجًا في ذكرياتها بقصص الأطفال الخياليّة التي حكتها لها سيلڤانا. حتى تصوّرت بيلوتشي في خيالها أشبه بتشارلي تشابلن. وهي، عندما ذهبت مع جابي إلى محطّة القطار لاستقباله، لم تخذلها خفّة دمه ومشاكساته، وإن كان شكله مختلفًا عن تصوّراتها.

جاء بيلوتشـــي حاملاً لأبناء أخته ذاكرة خصـــبة وآلة إيرنيمان للعرض الســـينمائي، قرّبتا بما عرضـــتاه من أفلام وحكايات بينهم. أخبرهم بيلوتشي عن رحلته الطويلة قبل أن يبلغ سيليني. كان قد غادر كالابريا عام ١٩٢٢ إلى روما، ومنها إلى فرنسا، ثم إلى الدار البيضاء. قطعت الحرب الدائرة طرق المواصلات واحتلّت البرّ والبحر والجوّ، لكن صديقًا إنجليزيًّا ساعده على تدبير ثمن تذكرة السفر وفاء لودّ قديم.

هبطت الطائرة في مطار ألماظة في القاهرة، فاحتجزته الشـــرطة في المطار أســـبوعًا بعد أن اتّهمته بالتجسّـــس لأنّه كان يحمل آلة عرض سينمائي. اعتبر رجال الأمن أنّها أداة من أدوات الإرسال ونقل المعلومات، فأقنعهم بيلوتشي أن يختبروها. نصـب لهم ملاءة بيضاء كشاشة للعرض، وجلس المحقّقون يشاهدون الأفلام، وهو يدير بكراته مستنجدًا بتشارلي تشابلن كي يخلّصه من ورطته...

كانت بيتا مشـغولة بتنظيم حفل عيد ميلاد جون، الصـبي السـويسـري الأشـقر، لذا أجّلت وجبة سيلڤانا المميّزة إلى الغد. سـاعدها سيّد الشـاعر وبيلوتشي في تعليق الطائرات الورقيّة في سقف المقهى، بعد أن أخبرها جون الذي سيتمّ عامه التاسع أنّه سيرتدي زيّ طيّار وأنّه يحبّ السماء. زيّنت كعكته بحلوى الفوندام الأزرق، واتّفقت مع صـاحب صـندوق الدنيا على عرض حكاية علاء الدين وبسـاطه السحري.

غادر بيلوتشي وجابي المقهى قبل بدء حفلة العيد، توجّها نحو سينما ستراند في محطّة الرمل. كان بيلوتشي راغبًا في اكتشاف كافّة دور السينما في الاسكندريّة، وكان جابي مرشده الأمهر.

بدأت الحفلة بعد العصر بقليل وامتلأ سيليني بأصدقاء جون وأقربائه. راحت بيتا تهتمّ بالصغار، فرسمت حمارًا وصنعت له ذيلاً من الورق، ثم غطّت أعين الصـغار بمنديل أبيض لكي يتنافسـوا على وضـعه في مكانه الصـحيح. وعندما جاء دور جون، نسـي الذنب ورسم للحمار جناحين قرب أذنيه، فسخر منه أصدقاؤه وصوّره الخواجة فنجلي مبتعدًا عن أصدقائه واقفًا إلى جوار حماره المجنّح.

أبعدت بيتا الطاولات ووضـعت صـندوق الدنيا في الوسـط. جلس جون خلف فتحة الصـندوق الصـغيرة، تلصّـص على علاء الدين ومصـباحه السـحري وطار معه على البسـاط نحو السـماء الزرقاء. كان الصـغير مأخوذًا بالحكاية، ولم يسـمع الجدل الدائر بين جدّه وبيتا حول دخول الفلاّح صـــاحب الصـــندوق إلى الحفل. لم يدرك الحفيد غضـــب جدّه إلاّ عندما ابتعدت فتحة الصـــندوق عن عينيه ورحل البساط الطائر بعيدًا.

٦

استيقظت بيتا متحمّسة للفوز بالتحدّي الذي ينتظرها: إعداد وجبة سيلڤانا المميّزة، المعكرونة بالتونة والزيتون الأسود. وجدت جابي وفنجلي مشغولين بآلة العرض، فاصطحبت خالها إلى حلقة السمك بالأنفوشي ليشتريا التونة الطازجة، وليشاهد بيلوتشي الإسكندريّة خارج قاعات السينما الأنيقة التي لم ير سواها منذ مجيئه. ركبا حنطورًا سار بهما من شارع فؤاد الأوّل نحو الكورنيش. في الطريق إلى السوق، أخبرت بيتا خالها عن رحلات يوم الخميس التي انقطعت مع وفاة أمّها وبيتا لم تكمل بعدُ عامها العاشر.

كان يوم الخميس من كلّ أسـبوع موعدًا للرحلة القصـيرة التي كانت سـيلڤانا تقوم بها إلى حلقة السـمك في بحري. تمرّ سـيلڤانا بين صـناديق السمك على أنواعه في تابّيرها القصـير وقبّعتها التي لا تفارقها، وإلى جوارها بيتا في فسـتانها الأبيض وفراشـة حمراء في شـعرها. تنتقي سيلڤانا الصـيد الخارج لتوّه من الماء، والأسماك التي لا تجيد كلّ النسـاء طهوها، كالحبّار والقراميط والكركند النادر. يضـع الصـيّادون لها ثمنًا عاليًا لأنّ مشـتري هذة الأسماك صـاحب مزاج يدفع تحت تأثير الرغبة ما يطلبه البائع. تفاصـل سـيلڤانا في الأسـعار حتى تصـل إلى تسـوية ملائمة، فهي تجيد تقدير ثمن الأشـياء ولا تقول كلامًا سـيّئًا بالإيطاليّة لا يفهمه الصـيّادون. كانت صاحبة خلق، تحرص على التحدّث بلغتهم العربيّة بطرافة مخارجها من لسانها.

ظنّت سـيلڤانا أنّها سـتترك قريتها خلفها نحو أرض جديدة سـتعيد تشـكيل حياتها فيها، لكنّ البحر والطرقات والطعام وحتى الملامح كانت كأنّها امتداد لقريتها. تضـيف زيت الزيتون البكر والمعكرونة على شكل قواقع، وتطهو طبق الحبّار الذي تعلّمت من أمّها كيفيّة تنظيفه وتقطيعه ونقعه في الليمون. في صـغرها، كانت سيلڤانا تتذوّق طعم حامض الليمون الممزوج بالزيت، فتشـعر أنّ هناك قطعة

مفقودة في بازل المتعة على لسانها. لذا أضافت على أطباقها في الإسكندريّة بهارات الكمّون والصعتر التي كانت تشتريها من العطّارين الشوام الذين يجلبون بهاراتهم من الشام وفلسطين. لقد أكملت بهارات سوق شيديا بازل المتعة على لسان سيلڤانا.

أجادت سيلڤانا إنشاء الصداقات مع الصيّادين الطيّبين الذين ينتقون لها الأسماك ولا يبالغون في أسعارهم. كانت، بعد إطعام أسرتها ممّا طهته، تحتفظ ببعض الطعام في وعاء من أوعية الطواجن المغربيّة التي اشترتها من السوق السوداء في الميناء كصفقة رابحة، وتذهب بها في اليوم التالي إلى الصيّاد الذي باعها السمك اللذيذ، لتخبره أنّ حكاية السمكة الصعبة الطهو اكتملت على أكمل وجه، وأنّه يستحقّ لوجوده في السوق ولبيعه طعام الجنّة هذا، أن يتذوّقه. لذا أحبّها الصيّادون وتنافسوا من يبيعها أسماكه ليتذوّق جودة فنّها. ولم يكونوا يسعون للبيع فحسب، بل أيضًا لكسب جائزتهم المجّانيّة ذات المتعة الخاصّة.

كان بيلوتشي يبحث عن السمك الطازج وكانت بيتا تبحث في وجوه الصيّادين عن ملامح أليفة لأصدقاء أمّها القدامى. عشرة أعوام مرّت منذ آخر زيارة لها للأنفوشي حيث ما زال بإمكانها إيجاد التونة الطازجة، وإن لم يعد في حلقة السمك من تتذكّره أو يتذكّرها.

عند عودتها، وجدت بيتا العجوزين ألبيرتيني وفنجلي يلعبان الطاولة. قبض ألبيرتيني على النرد وهزّه مسيطرًا على ارتعاش يديه اللتين تخذلانه فتجعلان الأشياء تفلت منه. لطالما كان ارتعاش يديه رهنًا بمزاجه، مذ أصيب بالشلل الرعاش في الثلاثين من عمره. حين رأى ألبرتيني أسماك التونة مع بيلوتشي، انتفضت يداه فسقط النرد بعيدًا عن الطاولة. قام بعصبيّة مغلقًا علبة الطاولة، مدّعيًا أنّ فنجلي يغشّ، وانسحب عائدًا إلى منضدة الحسابات يصطنع الانشغال بأرقامه وفواتيره. منذ توفّيت سيلڤانا، امتنع ألبرتيني عن أكل السمك، وتوقّف سيليني عن تقديم صواني السردين وطواجن الميّاس التي اشتهر بها.

توجّه بيلوتشي إلى المطبخ، بعد أن حيّا ماركو، صاحب ابنة أخته الإيطالي الجالس على البار بانتظار أن تنهي بيتا عملها لكي يخرجا سويّة. لقد كان محقًّا في ملاحظته مقدرة بيتا على تحطيم القلوب، فلم يكن سيليني يخلو أبدًا من عاشق يتغزّل بجمال عينيها.

كانت بيتا مولعة بكلّ ما يخصّ أولاد البلد، ملابسهم، عاداتهم، بشرتهم السمراء. ولعها هذا تسبّب في فترات فراق طويلة بينها وبين ماركو الذي يحبّها ولا تحبّه بالضرورة والذي لم يستسغ يومًا إعجابها بالمصريين. كان يغضب منها عندما يراها واقفة أمام عربة الكشري والكبدة الإسكندراني، تأكل مع عمّال مصنع لورنس للدخان القريب من منزله في محرم بك. تضحكها نكاتهم البذيئة، ولا تأنف من ضرب كفّها بكفّهم الملوّثة بالشحم من أثر الآلات. يصبّون على يدها الماء لتغسلها وتغسل معها قرون الفلفل الأحمر الحارّ. تتلذّذ بقضم القرن بجرأة كفلت لها بين العمّال احترامًا ومكانة خاصّة، فكم خواجاية قد يقابلها العامل منهم في حياته الشاقّة، تتجرّأ هكذا على الأطعمة الحرفيّة؟

منحها ماركو نسخة من مفتاح شقّته حتى لا تجعل من انتظارها إيّاه عذرًا لوقوفها مع العمّال. لكن، بعد كلّ عراك طويل بينهما، كانت بيتا تترك المفتاح أسفل وسادته، وهو ما يحدث انبعاجًا يضايقه كرسالة صامتة تنبئه بفترات غياب ستطول ولا يتوقّف هو خلالها عن البحث عن فستانها بين الزيّ الأزرق للعمّال المتجمهرين حول عربة الكشري في استراحة غذائهم. لم يكن الفراق بين ماركو وبيتا ليدوم، فما ينقطع بينهما يبقى دومًا قابل للوصل. كان ماركو يفاجئها أحيانًا، فتجده بعد غياب طويل جالسًا على بار سيليني يشرب بيرة ستيلا التي يفضّلها، أو تطرق هي باب منزله بدون مقدّمات، وكأنّها لم تفارقه أبدًا.

في البداية، ظنّ ماركو أنّ بيلوتشي هو صديق بيتا الجديد، لذا بادره بنظرات عدائيّة لم تتغيّر كثيرًا حتى بعد أن أخبرته بيتا أنّه خالها القادم من السفر. خاف ماركو على بيتا من حكايات بيلوتشي عن سيلڤانا بعد أن ظنّ أنّها تخطّتها وبدأت تعيش حياتها في سلام، بعيدًا عن ذكرى أمّها المتوفّاة.

بقي ماركو لتناول الغداء، وصعد ألبيرتيني إلى الشقّة هاربًا من السمك، متعلّلاً بصداع في الرأس. ساعد فنجلي في إعداد المائدة، وأحضرت بيتا أطباق المعكرونة بالتونة والزيتون الأسود. وزّع جابي كوؤس النبيذ احتفالاً بقدوم خاله، ورفضت بيتا مشاركتهم الشراب لأنّ الوقت مبكر وما زال أمامها عمل كثير. كانت، بين الحين والآخر، تترك المائدة لتلبّي طلبات الزبائن، ضاحكة من استغراق أخيها في الطعام وتجاهل ما عداه.

فجأة، وفيما كانت بيتا تحمل فنجان قهوة لأحد الزبائن، وقف إدوار الإيطالي، كاهن المعبد اليهودي في شارع النبي دانيال، وأخرج من حقيبته ملصقًا يدعو المطاعم إلى عدم تقديم معكرونة الشوتا محاربةً لفاشية موسوليني الصاعدة. كانت معكرونة الشوتا بصلصة الطماطم واللحم المفروم هي الوجبة الوطنيّة في إيطاليا، لذا مازحته بيتا قائلة إنّ المعكرونة التي يأكلونها لا علاقة لها بموسوليني، فهي بيضاء وبالتونة. بدت الحجّة مقنعة لإدوار الذي وزّع ملصقاته على الجالسين، قبل أن يخرج متّجهًا إلى مقهى آخر.

مزّق ماركو الملصق ورفع كأسه نخب موسوليني، «القائد العظيم الذي يقود إيطاليا نحو المجد»، لكن أحدًا من الجالسين لم يشاركه نخبه. جابي رأى فيه ديكتاتورًا عنصريًّا، وفنجلي لم يكن إيطاليًّا أصلاً. أمّا بيلوتشي، فكره أن يُدان الطعام بسبب الحبّ كما في قلب ألبيرتيني، أو بسبب الحرب كما في قلوب الفاشيين والمعادين لهم، فرفع نخب بيتا الجميلة عاليًا.

٧

يتجمّع المنشـدون في حلقات الذكر بمسـجد المرسـي أبو العبّاس يومي الأحد والأربعاء. بيتا تواظب على الحضـور، بالرّغم من عيونها الزرقاء وثقل لسانها في حرف الراء، وعدم استيعابها لكثير ممّا ينشده الحاضرون. لكنّها تذهب، وتقف متى وقفوا، وتسترسل في تحريك رأسـها متى تحرّكت روؤسـهم. نشـأت علاقتها بحلقات الذكر مصـادفة. ظنّت أنّها على موعد حبّ مع سيّد، وإذا بها أمام مقام عشق كبير مع المرسي أبو العبّاس.

يوم مرّ موكب الفرق الصـوفيّة من أمام المقهى، كان سـيّد يتابع يد بيتا الناعمة وهي تمسـح الطاولات وترصّ فوقها المزهريّات بوردها الأحمر البلدي. ألصقت بيتا وجهها بزجاج المقهى كطفلة مبتهجة باحتفاليّة اللون الأخضر المارّة من أمامها. شيوخ وشباب يرتدون الكوفيّات الخضراء ويرفعون أعلامًا عالية مكتوبة بخطّ لا تفسّره بيتا... عجبوكي؟... سألها سيّد، فهزّت رأسها موافقة. لم يكن سـيّد يشـبه نموذج ابن البلد الذي تفضّـله بيتا، حتى إنّ بشـرته لم تكن سـمراء أصـلاً. وكان يتعمّد تقليد أخاها جابي في ارتداء القمصـان البيضـاء وفي طيّ أكمامها فوق المرفق، ظنًّا منه أنّه بذلك يجذب انتباهها. لم يكن يعرف أنّها تفضّـل أيادي الشـحم والزيت... هما لابسين كده ليه؟... سألت بيتا، فأخبرها سيّد أنّهم يحتفلون بأعياد ميلاد أوليائهم الطيّبين وهذا مولد سيّده أبي الدرداء. وأبو الدرداء هذا غريب عن الإسكندريّة مات فيها ولم يولد بها، ومع ذلك تحتفي المدينة بمولده ولا تحيي ذكرى وفاته!

أخذها سيّد إلى المولد بالعطّارين. كان يمنّي نفسه بيوم رومانسي، سيقدّم لها فيه غزل البنات وهو يقرأ عليها آخر قصائده في مديح هشاشـتها ورقّتها التي تشـبه السكّر المعقود. خلف رقّة بيتا الظاهرة فتاة تريد أن تجرّب كلّ المتع المتناثرة على طول شـادر المولد. تقفز فوق الحصان البلاستيكي، ومنه نحو المركب الخشبي صـارخة في صـاحبه... أعلى أعلى... دفعها صـاحب أرجوحة المركب عاليًا، فقد كان حماسـها أمرًا لا يمكن ردّه. كلّما غابت عين سـيّد عنها، اختفت من حوله ووقفت لتسـتمع إلى مواويل الصـعايدة، أو لتصـوّب بالبندقيّة على الكرات البيضـاء وتحصـل لنفسـها على قرد يمكنه أن يدقّ على طبلة ويخفض لها رأسـه تحيّة. وبين كلّ ذلك، يلتفت سيّد ليشتري عصيرًا فلا يجدها ويجري بحثًا عنها.

زاحمت بيتا الأطفال حول الأراجوز وحول صندوق الدنيا. أغمضت عينًا وفتحت الأخرى لتطلّ من فتحة الصندوق الصغيرة على عالم كرتوني وملوّن فيه فتاة ترتدي فستان زفافها خطفها الجنّي يوم عرسـها، فتقضـي نهاراتها الطويلة في غزل قيد من ضوء القمر لتسلسل به الجنّي وتهرب عائدة إلى حبيبها. بكت بيتا مع بكاء العروس لحظة خطفها، وضـحكت وهي تضـرب الجنّي على مؤخّرته بعدما قيّدته بضوء القمر... عشان ما يبقاش يعمل كده تاني... ظلّت بيتا لاهية كطفلة كبيرة وحطّمت آمال سيّد الرومانسيّة.

لم تهدأ إلاّ عندما وجدت نفسها بين الدراويش في الحضرة التي مرّت من أمام مقهاهم. كان ذلك الحشد الأخضر مصطفًّا أمامها يهزّ الكتف مع الكتف ويصـفّق مع ترديد «حيّ»، يغلّفه الناي منسـابًا طارقًا على شـغاف قلبها لتسكن. شـاهدتهم، أحبّتهم، وأرادت أن تقلّد هيامهم. بعدها، عرفت من سيّد مواعيد جلساتهم الأسبوعيّة، توطّدت علاقتها بالمرسي أبو العبّاس، وظلّ سيّد غريق أزرق عينيها.

لا تنسى بيتا المرّة الأولى التي دخلت فيها من باب المسجد المخصّص للرجال. كلّ العيون كانت مغروسة بها تجذبها إليها وتبعدها عن ساحة الصلاة. كأنّها تقول أنتِ نعم ولكن ليس هنا. حينها تطوّع عجوز محني الظهر لإرشادها نحو مصلّى السيّدات. لم يكن ما يفصل بين الرجال والنساء الستارة الخضراء كتلك المتناثرة في مساجد الإسكندريّة الصغيرة، بل تضمّن الطريق إلى عالم النساء الخلفي التفافًا طويلاً حول المسجد؛ وكأنّ النساء والصلاة لا يجتمعان.

تتبّعت بيتا ظهر العجوز المحني ودقّة عكّازه على البلاط الأبيض. صـعدت خلفه سـلّمًا عريضًـا وسـارت في ممرّ ضـيّق، ترافقهما أصوات الذاكرين الذين رأتهم بيتا يكدّون في تحريك رؤوسهم حتى تصل أجسادهم في ظنّها نحو الهيام. كانت تعلو في أذنها الله الله، وهي تسير خلف العجوز بشوق حتى تصير جزءًا من الصخب الذي يهدر في محيط المسجد.

على باب مصلّى السيّدات، توقف صاحب الظهر المحني بغتة، متراجعًا خطوات إلى الخلف. أخبرها: «إذا تقدّمت احترقت... زيّ جبريل كده»، وضحك على نفسه. لم تفهم بيتا سبب ضحكته. كانت مشغولة بمراقبة المسجد من فتحة الباب الموارب، تفتّش عن الهائمين الذين رأت مثلهم في مولد سيدي أبي الدرداء. لكن ما رأته كان امرأة تفرز بقايا خبز متكسّر برقّة وحساسيّة. نادى العجوز الذي يقف خلف بيتا... يا سعديّة. فزعت التي تفرز الخبز وتهشّمت في يدها كسرة هشّة، فتناثر الفتات من حولها. جاءت غاضبة، حملت في يدها
المكنسة وبدلاً من كنس الفتات، اقتربت من بيتا التي خافت من هيكلها الضخم وإمساكها للمكنسة كعصا على وشك أن تضرب بها أوّل شخص تقابله. عندما رأت سعديّة المتحفّزة للعراك أنّ العجوز ذا الظهر المحني هو الذي نادى عليها، ابتلعت حسرتها على كسرة الخبز، ووضعت المكنسة إلى جوارها احترامًا له.

سعديّة هي عاملة النظافة المسؤولة عن تنظيف المِيضَأة وكنس حصير المسجد الخشن. كان هيكلها مهيبًا لا يتماشى مع كونها عاملة فقيرة يحنو عليها المصلّون ببقايا الطعام. سلّم العجوز بيتا إلى سعديّة؛ ولولا شغفًا أشعلته حلقة الذكر بمولد سيدي أبي الدرداء في قلب بيتا، لفرّت منهما هاربة.

في داخل المصلّى، خاب ظنّ بيتا كثيرًا إذ إنّها لم تجد سوى امرأة واحدة بدت كتوأم العجوز المرشد، ساكنة في مكانها، وبدا لها أنّ سعديّة لن تغفر أبدًا كسرة الخبز الضائعة. ظلّت منفيّة في عالم النساء عن صخب الشعر الذي استمعت إليه عند دخولها خطأ من باب المسجد الرئيسي. يصل إليها هدير ترديد الرجال خلف الشيخ الذي ينشد. تتشبّث بيتا بالحاجز الخشبي الذي يفصلها عن احتفاليّة الرجال بالدوران وهزّ الرؤوس. تتجسّس من بين نقوش النجوم والأشكال الخماسيّة على جلسة الشيخ.

يجلس المنشد في منتصف المحراب وخلفه بطانته وأمامه صفوف المريدين يقفون ويجلسون وينشدون معًا صلاة جماعيّة. كانت بيتا كسجينة تتلصّص على ما يفعله الأحرار، مرتبكة بين مراقبة الرجال وبين الخوف من سعديّة التي لم تترك المكنسة من يدها. زاد من ارتباكها أنّها لم تفهم أشعارهم المغنّاة، ولم تجد واحدة تشاركها التلويح بالرأس على أنغام الربابة. بيتا تفهم الشعر المكتوب أكثر، وينفذ إلى روحها الشعر المسموع بشكل أقوى. وكلاهما في حلقات الذكر من الطقوس الجماعيّة التي لا تتمّ سوى بالمشاركة. لكنّها كانت في المصلّى بمفردها بدون هائمة تقلّدها، أو فاهمة للشعر تصلها بمسبّبات هيامهم.

وجدت بيتا بالمسجد مكتبة صغيرة بها كُتَيّبات شعر وأذكار، بحثت في القصائد عن قصيدة اليوم، ولم تجدها. جلست إلى جوار المكتبة وخزانة الأحذية خائفة من سعديّة، محتملة رائحة الركن المختلطة، بعد أن فشل البخور في التغطية على رائحة الأتربة المسيطرة على هواء المسجد. بعدما أنهت سعديّة عشاءها وأطمأنّت على خبزها الهشّ، منحت بيتا كُتَيّبًا صغيرًا كانت جالسة عليه به قصيدة اليوم الطويلة، مكتوبة بخطّ منسوخ وليس مطبوعًا. بالكتيّب أبيات شعر كُتبت بتأنٍّ ومزاج كاف ليرسم التشكيل فوق الحروف، التهمتها بيتا وهي جالسة تهتزّ بجذعها مع إنشاد الشيخ. كانت القصيدة التي منحتها إيّاها سعديّة بوّابتها للتورّط في حلقات الذكر. ومن يومها، لم تغب بيتا عن المرسي أبو العبّاس.

تتفاوت أعداد القادمات لمسجد المرسي أبو العبّاس بحسب المواسم. يمتلئ مصلّى السيّدات والممرّ الضيّق أمامه في الموالد. واظبت سعديّة على العناية ببيتا كما وصّاها العجوز صاحب الظهر المحني. تنصحها بأفضل الأماكن في الجلسات لتكون قريبة من صوت الشيخ المنشد، وتختار لها الصفّ الممتلئ بالسيّدات، «أصل شكلهم زيّك بنات ناس»، وتعطيها قصيدة اليوم بحياديّة فهي ترفض الأموال التي تخرجها بيتا ثمنًا لتلك الكُتَيّبات المنسوخة. ولا يبدو لبيتا أنّ سعديّة تحمل لها عطفًا خاصًّا، كأنّ الحماية التي تمنحها لها عهد موثّق بينها وبين العجوز ذي الظهر المحني.

تستمع بيتا للأبيات التي يردّدونها وتسير بأصابعها مع الكلمات حتى يأتي ذكر ما يصف علاقتها بالسماء فتتأثّر... عندما يكون عدد المصلّيات قليلاً تراقب الرجال عبر الفتحات الخماسيّة بالحاجز الخشبي، تراهم يحرّكون جذوعهم ويغنّون... وليس لي في سواك حظّ. تتطاير أياديهم في فراغ المسجد... فكيف ما شئت فامتحنّي. تذهب روؤسهم في اتّجاهات عدّة، يرتعش صوت المنشد وهو يقول إن كان يرجو سواك قلبي... لا نلتُ سؤالي ولا التمنّي، فتأخذهم النشوة ويصفّقون لسمنون المحبّ.

عندما تملأ السيّدات من حولها المكان، تقف إلى جوارهنّ تهزّ رأسها مع كلمة حيّ. كان تقليدهنّ بشكل بدائي يصيبها بالصداع سريعًا، فتجلس في أحد الأركان بعيدًا لمراقبتهنّ، حتى عرفت كيف تتحرّك مثلهنّ تمامًا وهي تصنع برأسها بندولاً مهتزًّا. بعدما فهمت الطريقة انضمّت إلى بحر الشاطحات. تصنع حركات رأسها من حولها سياجًا يحيطها فتفقد الصلة بالزمان والمكان ويصبح كلّ ما تسمعه همهمات جنائزيّة، وكلّ ما تراه بعينها غائمًا وتفاصيله متداخلة كأطياف. بعدها يخفت كلّ الصوت ويعمّ ضباب أبيض، تكون قد أُنهكت تمامًا فتجلس لتستريح.

تأتي السيّدات إلى مسجد المرسي أبو العبّاس لأخذ البركة. عرفت بيتا للبركة سبلاً شتّى. هناك من تحصّلها فى إنهاك جسدها حدّ التعب كتكفير عن الذنوب. وهناك من المتزوّجات من تأتي لتسأل صاحب المقام حاجتها... يا سيدنا رحمي عنيد ما يشيل بذور... الأمّهات تشعل شموعًا كثيرة وتهمس بين القضبان الحديديّة التي تحيط بالقبّة الخضراء... يا مولانا الواد عاقّ ولسانه بينقّط مرّ... والعجائز تطلب من النائم في
قبره شفاعة... سوّيت ما خلّيت بس رجايا فيك كبير... وتسهب التائبة في وصف حاجتها على قدر شموعها المضاءة... طالبات جنّته ورضاه.

صادقت عالية بيتا في إحدى حلقات الذكر. كانت بيتا محاصرة بين سيّدتين في ملابس سوداء لم تكن تدري إن كانتا غائبتين فعلاً في دنياهما من فعل الشطح، أم كانتا تحاصرانها عن قصد. فكلّما أرادت الخروج من بينهما، ضيّقتا عليها الحصار. كانت مرتبكة وخائفة وسعديّة بعيدة عنها، أياديهنّ تتطاير على الجانبين كأنّها تصنع سجنًا يمنعها من الخروج، ولم تعرف كيف تفلت من بينهما. هبطت عالية فوقهما من السماء، أزاحت السيّدتين بعيدًا... يلاّ يختي منّك ليها... كان صوتها مرتفعًا كفيلاً بلفت الأنظار إليهما، وأمثالهما لا تملكان سوى تماهيهما في الزحام.

كانت عالية خبيرة بالعصابات التي تجيد سرقة الذهب والساعات في زحمة التجمّعات، عارفة أن لا شيء يقلقها قدر لفت الانتباه لوجوه أعضائها وألفة ملامحهم. حذّرت بيتا من الوقوف في الأركان البعيدة، أو بين سيّدتين تعرفان بعضهما بعضًا. أجلستها أرضًا ومنحتها كوبًا من العصير لتهدّئ من روعها... طرّي على قلبك وروّقي... شربت بيتا عصير الكركديه البارد، مبتهجة بخلاصها من الحصار. كانت عالية توزّع أقراص العجميّة المحشوّة، وتشعل الشموع وترسل بالعصائر للمنشد وبطانته. وبيتا عادت من جديد إلى بحر الشاطحات. لكنّها لم تندمج كلّيّة، فبقايا رعشة خفيفة كانت تنتاب ساقيها. وعندما جلست لترتاح وتقرأ من الكُتيّب لتنشد معهنّ، لم تمسسها الأبيات هي الأخرى. أغمضت عينيها في استسلام، فلا جسدها تلاشى ولا روحها أصبحت خفيفة. كانت بيتا تشعر بنفسها ثقيلة ومنهكة. ربتت عالية على كتفها وأخبرتها... ياواش ياواش على روحك... كانت بيتا ساخطة من نفسها، خاصّة بعد أن رأت تلك الفتاة تبكي من الكلمات، فيما لم تجد هي في داخلها إلاّ خواء باردًا... ما المحجوب عنها في أبيات المنشدين؟

ضاعف عليَّ بجهدك البلوى

وابلغ بجهدك غاية الشكوى

واجهد وبالغ في مهاجرتي

واجهر بها في السرّ والنجوى

ظلّت عالية تضحك من رهافة بيتا في التعامل مع الكلمات، فهي لم تر أيّ داع لحزنها، وهي لا تعتقد أنّ الباكية تصبّ كلّ تلك الدموع تأثّرًا بما سمعت. كلّ من تبكي هنا، تفرغ طاقة غضب مسبقة ولا تحتاج إلى كلمات بعينها حتى تحثّ روحها على النحيب. أخبرتها أنّ الذوبان الكامل في الإنشاد وفي أنغام الربابة، يتطلّب استحضارًا لكلّ أوجاع القلب التي تؤرقه، وعليها أن تذكّر نفسها وتنهك جسدها، وستبكي وتتنقّى وتؤدّي كلّ تلك الطقوس بحبّ حتى تتّصل.

لم تكن عالية تشطح، ولا تقرأ القصائد ولا تهتمّ، لكنّها كانت تولي مخبوزاتها التي توزّعها على الراغبين عناية خاصّة وتجلب للمسجد أجود أنواع البخور من الشيخ حسين الحجّام. بخورها يغيّر رائحة المصلّى كلّه، ويوم تتأخّر في إمداد سعديّة بالأعواد المعطّرة، تسيطر على المسجد روائح الأتربة والأنفاس. تغطّي عالية رأسها ورقبتها بغطاء أخضر يشبه غطاء القبّة لتدعو بالوصل الدائم بينها وبين حبيبها الذي يصلها حينًا ويهجرها أحيانًا، بالرّغم أنّ دعاءها لم يُستجب حتى الآن، لكنّها لا تتوقّف عن الحضور. عالية تفي بنذور نذرتهالله قبل استجابة دعائها، وتخبر بيتا أنّها تقدّم للربّ حسن نيّتها، فجلّ ما تريده أن تبقى مع من تحبّ. فقط تطرب لذكر الحبّ فيما قد تسمعه من غناء المحيطين بها، وقد بدا لبيتا أنّها تتقفّى أثر الحبّ في قصائدهم بالإيهام وتظنّ ما ينشده المنشدون عبادة الله، غناءً في حبّ رجلها.

لقد وجدت فيها بيتا صحبة أليفة وسط صخب الشاطحات، وانشغال السائلات بدعائهنّ، وحيرتها الخاصّة في فهم معاني القصائد. وأحبّت حديث عالية عن الأفراح التي تحييها والفتيات اللاتي تدرّبهنّ على الرقص، وعن الغيرة التي تبثّها بينهنّ ليتنافسن على كسب ودّها.

بيتا كانت تعلم أنّ فلسفة عالية في الحبّ لا تلائمها وأنّ عليها إيجاد فلسفتها الخاصّة، لذا تراها تجرّب على جسدها الإرهاق الشديد لتختبر إن كان عائقًا أمام خفّة روحها أم لا. كان جسدها يخذلها بتعبه السريع قبل أن تجرّب ما تبتغيه روحها. تهوّن عالية عليها الطريق الصعب بحكايات عشقها الذي لا تتّسع له أرض، وبنصائح تطرب لها بيتا كدعوتها للاسترخاء في حمّام الثلاثاء الشعبي.

٨

كأنّ الأيادي تسلّم بيتا من عالم إلى آخر، فيما هي مستسلمة سعيدة. يسلّمها ماركو لعربة الكشري، وسيّد للمرسي أبو العبّاس، والعجوز لسعديّة، وعالية لفتيات التدليك بالحمّام الشعبي. تجرّب كلّ ما يتاح لها بروح مرحة، تضاعف حياتها في الدقيقة الواحدة كأنّها تخاف الموت قبل أن تعيش كلّ الفرص الممكنة.

ذهبت بيتا مع عالية إلى واحد من تلك الحمّامات المتناثرة بالمنشيّة. اعتادت الذهاب إليها في طفولتها. بعد قضاء يوم طويل في حلقة السمك، كانت بيتا تذهب مع أمّها للحمّام الشعبي. تبدأ رحلتهما بالحجرة الباردة. تتذكّرها بيتا بنقوش الورود الصغيرة على الرخام الذي يحافظ على درجة الحرارة المنخفضة بالحجرة. فيها تجلسان باسترخاء كأنّهما تتلقّيان نسيم الفجر البارد. تخلعان ملابسهما وتعلّقانها بعناية إلى جوار ملاءات اللفّ والفساتين الحمراء والخضراء المزيّنة بالدانتيل والكرانيش. كانت تلك الحجرة تبدو أحيانًا كقطعة فجر لا يمرّ عليها الوقت، وأحيانًا أخرى كامتداد للمصاطب التي تجلس السيّدات عليها أمام منازلهنّ وهنّ يتحدّثن عن الأحوال ويتبادلن النميمة الأليفة. غالبًا ما تختلط فيها ملاءاتهنّ السوداء فيتبادلن الاتّهامات بالسرقة.

تلفّ سيلڤانا جسدها الأنيق في فوطة كبيرة تسعها، ثم تغلّف صغيرتها بفوطة أصغر. وفي الشتاء، تتشاركان الفوطة الناعمة وكأنّ بيتا تعود إلى رحم أمّها من جديد. تحتضنها سيلڤانا نحو الممرّ الطويل. درجة حرارته متوسّطة بين البرودة والدفء، لذا يسمّى بالوسطاني. هنا، تغنّي سيلڤانا لبيتا أغانيها المفضّلة التي رقصت عليها في قريتها قبل زواجها، فتتقاطع في ذهن بيتا أقدام أمّها الراقصة مع الأضواء الزرقاء والحمراء التي تعكسها النوافذ الزجاجيّة الملوّنة على أرضيّة الممرّ، يقودهما بتدرّج حرارته نحو الجزء الساخن أو الجوّاني.

تستأجر سيلڤانا حوضًا خاصًّا لها ولابنتها حتى لا تتشاركا الحوض مع أحد. تنزلان إلى مائه الساخن. تفرك كعبها بالحجر الأسواني وتدعك جسديهما بالماء والصابون، وبعدها مرحلة حجر الطين تطلبه من العاملات وتأخذ وقتها على مهل لتسير به على جسدها.

تطلب المدلّكات منها أن ترتاح أوّلاً حول حوض من الماء الساخن ينفث بخارًا. تجلس على حوافّه العريضة وتترك البخار يوسّع مساماتها، يتخلّلها هواؤه فترتخي عضلاتها وتسترخي. تعطي دهاناتها الخاصّة للمدلّكة وتطلب منها أن تخلطها بالعسل، تأخذ المدلّكة كمّيّة مناسبة لتصنع بها طبقة بيضاء عسليّة فوق جلد سيلڤانا المشدود، تضعها على ساقيها وظهرها وذراعيها. كانت تبدو في استلقائها على حافّة نافورة البخار كأنّها كعكعة رخاميّة من زمن آخر، جميلة ومغوية، تسترق النساء النظر إليها. لم تميّز بين نظرات الغيرة والاشتهاء، لكنّها لم تعزّز ثقتها ويقينها في جمال جسدها إلاّ عبر نظراتهنّ، تلك النظرات التي يسدّدها النوع الواحد لبعضه كصكوك جودة وأفضليّة غير مشكوك فيها.

ترفض سيلڤانا أن تدلّك واحدة من المدلّكات بيتا، ترى أنّ البخار كاف لجسدها الصغير حتى ينضج على مهله. في استلقائها، تمنح بيتا قطعة فاكهة لتنشغل بها حتى تنتهي من تدليل جسدها. تنزلان مجدّدًا في ماء أكثر برودة لتزيلا آثار التعرّق والتدليك، ويدرجهما الممرّ بحرارته المتوسّطة حتى تهدأ حرارة جسديهما وتلائم حياديّة الهواء خارج الحمّام.

تخرجان من الحمّام ولجسديهما رائحة طازجة لجلد وليد يلامس لتوّه هواء الأرض. تشعر سيلڤانا أنّ ملابسها عبء على الجلد الناعم، وتشعر بيتا برغبة في التحوّل إلى سمكة ذهبيّة لا تترك الماء أبدًا. وبدلاً من العودة إلى المنزل عبر الحواري الضيّقة من المنشيّة حتى شارع فؤاد، تأخذان طريق الكورنيش حيث ماء البحر المالح مسجّى إلى جانبهما يحمل في طيّاته براح الأزرق الذي يشبه عينيْ بيتا وجسور الوصل بين ماضي سيلڤانا وحاضرها...

جلست بيتا إلى جوار عالية حول نافورة البخار. دلّكت كتفيها امرأة ثلاثينيّة عنيفة، تخرج من الحجرة الجوّانيّة كلّ ثانيتين لتنادي في الممرّ الوسطاني... يا هند... تألّمت بيتا من ضغطها. كانت كأنّها تنتقم من المدعوّة هند التي لا تجيب.

كانت عالية مغمضة العينين نائمة باسترخاء. وصلت هند تمضغ لبانًا وتصنع به فقّاعات كبيرة. استلمت من الثلاثينيّة العنيفة أدوات العمل، القماش الخشن وعلبة الطين وزجاجة الزيت. دارت هند حول المستلقيات على حافّة البخار، تأمر واحدة بالعودة إلى الحوض الساخن مجدّدًا، وتسير بيدها حول ساق أخرى، وتربت على ذراع ممتلئ. كانت كتاجر يفرز بضائعه.

نفرت بيتا من تعاملها مع أجسام النساء، وتذكّرت أنّ أمّها كانت تدلّكها بنفسها ولم تسمح لواحدة بلمسها، فقرّرت أن تنزل إلى الحوض الأبرد وتتخلّى عن التدليك. لكن هند تفحّصتها من رأسها حتى قدميها وسكبت زيتًا على يدها، وأخبرتها أنّها ستزيل الآلام التي تسبّبت فيها العنيفة صاحبة الخلق الضيّق، ثم سارت بيدها على كتفيها بحركات متقنة تستهدف عضلة عضلة لتقبضها وتبسطها. تمارين هند سكّنت آلام بيتا فعلاً. كانت يدها أكثر احترافيّة من عينيها النزقتين. عادت بيتا لتنام مجدّدًا على الحافّة. فركت هند بالقماش الخشن ذراعيها وتركتها لتكرّر التمارين ذاتها على المستلقية بجوارها. تلفّتت بيتا حولها بحثًا عن واحدة بجمال سيلڤانا ولم تجد، مدّت ذراعيها أمامها ولم يكن معها لا عسل ولا دهانات خاصّة كالتي دأبت سيلڤانا على شرائها. صبغتها بالطين المتوافر في الحمّام فكانت كالتمثال الأسود نقيض تمثال سيلڤانا العسلي. افتقدت أمّها بشدّة وشعرت بيتمها الذي تغالبه بالجري وراء الحياة. غياب العسل أعاد إلى ذاكرة بيتا يتمها.

٩

جاء السيرك إلى المدينة ونصب خيمته في ساحة مسجد المرسي أبو العبّاس التي كانت مزدحمة بالخيم المنصوبة استعدادًا للاحتفال بالمولد النبوي. دار قرد السيرك في الحواري راقصًا ليعلم الجميع أنّ الاحتفال قد اقترب.

وقف عبد الله مع رقيّة أمام منزلهما يصفّق للقرد الصغير الدائر في الحواري، يقفز ويسلّم على المارّة. رفض الحجّام أخذ ولديه لمشاهدة السيرك، فجاء السيرك إليهما وامتلأت دار الحجّام بأبطاله. للمرّة الأولى خلال عملها الطويل مع أبيها، شعرت رقيّة بسعادة بالغة. كانت، كأنّها جزء من حكاية غرائبيّة.

وزّعت الشاي على فتيات الأكروبات وعلى السيّدة ذات الشارب واللحية التي جلست إلى جوار مدرّب الأسود مقطوع الذراعين. جاؤوا طالبين طبّ الحجّام الشهير. كانت فتيات الأكروبات يعانين من آلام متفرّقة في المفاصل، فأعطاهنّ الحجّام دهانًا مصنوعًا من النعناع والشطّة والزنجبيل. أمّا المرأة صاحبة اللحية فقد شكت من وخز يسري طول أعصاب ساقيها. أخبرها الحجّام أنّه عَرَضٌ شائع من أعراض عرق النسا، طالبًا من رقيّة أن تجهّز له جلسة الحجّامة.

وقفت رقيّة إلى جوار المرأة وهي تبحلق في لحيتها وسألتها: بتحلقيها؟ حدّ يحلق أكل عيشه... أجابتها المرأة وهي تتلوّى ألمًا.

لاحظت رقيّة شرود ذهن أبيها وارتباكه إذ ترك ورقة الذِّكر مشتعلة لوقت طويل داخل كأس الحجّامة الملتصق بجلد المرأة المشعَّر. لم تشتكِ ذات الشارب من الحرارة، وبدت معتادة على تحمّل آلام مبرحة. لكن، وفيما كان الحجّام يشرّط جلدها بالموسى، ارتجفت يداه للحظة فحفرتا جرحًا أعمق من المطلوب. تأوّهت المرأة كاتمة صرختها، فخفق قلب الحجّام بشدّة وهو يراقب نزيفها، دارت الحجرة في عينيه الزائغتين وغلب عليها لون الدم الحارّ.

كتمت رقيّة نزيف الجرح العميق، وطهّرت الجراح الباقية، ثم قدّمت للمرأة كوبًا من الحليب. اقتربت من أبيها وهمست له أن يذهب فيستريح، لكنّه أشاح بيديه في وجهها، مناديًا... اللي بعدها يدخل...

أجاد مدرّب الأسود استخدام ساعديه كبديل لذراعيه المفقودين. طرق باب الحجّام بالساعد الأيسر، وصافحه بالأيمن. لم تكن به علّة طارئة. كان رجاؤه سحرًا يعيد إليه ذراعيه من بطن الأسد. في أحوال أخرى، كان ردّ فعل الحجّام على طالبين السحر غضبًا شديدًا، لكنّ الرجفة التي أصابت منذ فترة يديه، جعلت في قلبه شفقة على مصابي الأيدي. نصح الرجل بالمداومة على أكل الحبّار بأذرعه العديدة وأعطاه حجابًا له مفعول السحر يُنبت للطالبين أذرعًا خفيّة. أخذ الرجل حجاب الحجّام بأسنانه ودسّه في جيب قميصه، ثم خرج وهو يمدّ ساعديه آملاً في أذرع جديدة. سألت رُقَيّة أباها عن المكتوب داخل الحجاب، فأخبرها أنّه فارغ.

أقام الصداع النصفي في رأس الحجّام حضرة ذكر عنيفة، زاغ على أثرها بصره وصار نبضه قنابل تدوّي. أظلم حجرته وجلس يحتسي الكركديه، من دون أن يبدو عليه أيّ تحسن. تكرّرت تلك الأعراض كثيرًا في الآونة الأخيرة ولم يفلح في مداواتها. ومع الآلام التي تسرح وتمرح في رأسه على سجيّتها، عزم الحجّام على طلب المشورة من صاحبه صِدّيق العطّار الذي سينشد في المولد النبوي الليلة.

يسكن الشيخ صِدّيق العطّار في شارع مسجد الإمام البوصيري في الأنفوشي. ومع أنّه عطّار، إلاّ أنّ العطارة لم تجمع بينه وبين الشيخ حسين الحجّام، بل جمعتهما خطبة جمعة طويلة وافقت المولد النبوي خطب فيها شيخ عجوز تابع لوزارة الأوقاف، أخطأ في الآيات والأحاديث، فنسب ما لبخاري لمسلم وخلط بين الأحاديث الضعيفة والصحيحة.

لم ينتبه المصلّون إلى كلماته، بل كانوا يفكّرون في الرقاق الساخن والبطّ الذي يُطبخ خصّيصًا في الموالد، ويحسبون العملات المعدنيّة التي سيوزّعونها على شحّاذي الطريق بمناسبة اليوم الكريم وتلك التي سيدفعونها لشراء الحلوى ما بين حمصيّة وسودانيّة وملبن لزوم المولد. شغلتهم أحذيتهم المتروكة على الباب، هل سيجدونها في أماكنها، أم أنّها ستسرق فيعودون إلى منازلهم في قبقاب المسجد الخشبي.

كان الحجّام وصِدّيق مستاءين من أخطائه المتوالية، حتى جاء على بيت شعر ونسبه لصاحب مقامهم الإمام البوصيري. اعتدل الخطيب العجوز في وقفته على المنبر ورفع صوته المتحشرج، فخرج كأنّه قادم من الأمعاء:

الله أفهم قلبي منذ كنت فتى فلا تراني لغير الحبّ ملتفتا

ولم يكن البيت للبوصيري، لكن من شعر الكواكب الدرِّيّة التي ألّفها الشيرازي كتسبيع لقصيدة البردة للبوصيري. حفظ صِدّيق تسبيعة الشيرازي عن ظهر قلب لعذوبتها، فكان ينشدها في حلقات الذكر بالموالد. أمّا الحجّام فوجدها في كتبه الكثيرة وقرأها مرّات عدّة حتى علقت بذهنه.

وقف صِدّيق بلحيته المهيبة في وسط المسجد بين الخلق التائهين، يعدّل للخطيب خطأه. أخبره أنّ بردة البوصيري تبدأ بالآتي:

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعًا جرى من مقلة بدم

لحّنها كما يلحّنها عادة في الموالد وكما سيفعل ليلاً عندما ينصبون شادر الاحتفال أمام المرسي أبو العبّاس. عدّل المصلّون من جلستهم ونظروا باتّجاهه، فصدّيق منحهم عرضًا مجّانيًا أذهب عن عيونهم النعاس، كما أنّه استولى بالكامل على انتباه الحجّام.

وبعدها أخبرهم صِدّيق أنّ تسبيعة الشيرازي التي أخذ منها الخطيب البيت تبدأ ببيت مختلف، وقبل أن يقول البيت، وقف الحجّام يسانده ويقول:

الله يعلم ما بالقلب من ألم ومن غرام بأحشاء ومن سقم

ابتسم صِدّيق وردّ بوجل: الله يذهب ما بالقلب من عللِ.

فتابع الحجّام: ومن سقام حشا الأحشاء من غللِ.

فردّ صِدّيق: الله يطفئ نارًا بالحشا اتّقدت.

فقال الحجّام: أسلت دمعي من الأجفان ما خمدت.

فأجاب صِدّيق: الله يرحم صبا في الهوى افتتنا

فواصل الحجّام: ما حالف السهد حتى خالف الوسنا

بدا للخطيب العجوز أنّ الأخذ والردّ بينهما سيطول وأنّ المصلّين أعجبهم صوت صِدّيق وإن لم يفهموا عنه ما يقول. رأى في عيونهم يقظة لم تحفّزها خطبته، فأوقفهم وهو يصيح... مجلسنا هذا ليس مجلس شعر... ثم نهر الحجّام وصدّيق بحجّة أنّهما يتلوان كلامًا عن الصبا والهوى والفتنة في خطبة الجمعة. تذمّر منهما قائلاً... يعني يا خيّ منّك له، كنت غلّطت في البخاري...؟ وما بين عيب وحرام متناثرتين في كلماته، نقل عدوى النفور من شِعرهما إلى المصلّين الذين طلبوا منهما التزام الصمت والاستماع.

ولأنّ الخطيب العجوز كان قد أخطأ فعلاً في أحاديث الإمام البخاري، ترك الحجّام وصدّيق خطبته وبدأت بينهما صداقة قوامها الشعر والعطارة وألفة مجالسة الكتب. فكلاهما قبل أن يجد الآخر، صادق أشباح البوصيري والشيرازى وغيرهما، فأخذا عنهم الكثير استعدادًا للقاء كهذا، في خطبة جمعة عابرة.

نصب صِدّيق شادره في المولد النبوي إلى جوار مسجد المرسي أبو العبّاس. وقف خلفه بطانته في صفّ واحد. كانوا فتيانًا يردّدون بين كلّ بيت شعر وآخر، «اللهم صلّ وسلّم دائمًا أبدًا، على حبيبك خير خلق الله كلّهم».

توافد المستمعون إلى شادره، يجذبهم صوته العذب، ثم اكتمل الشادر تمامًا بقدوم عازف الربابة. كان أجر صديّق وبطانته رخيصًا للغاية، ترضيهم أكواب الشاي وعلب المعسّل البلدي، وعندما يفرجها الله عليهم يبلّ ريقهم مريد بقطعة حشيش وصاية.

واظب الحجّام على حضور المولد في شادر صِدّيق كأنّه يحيي ذكرى صداقتهما السنويّة مع ذكرى ميلاد النبي. أحبّ الحجّام صوت صاحبه في الإنشاد وشارك بطانته في الترديد، وإن لم يشاركهم الحشيش. لكنّه هذه الليلة، وهو مهموم بآلام رأسه، ذهب معهم بعد انتهاء المولد إلى منزل صِدّيق. ومع أوّل أنفاس زرقاء تعبق في صدره، زال عن عينيه الضباب وصارت جمجمته رائقة كأنّها خواء يُسمع فيها صوت الريح. بدا للحجّام أنّه وجد دواءه مصادفة، فصرف النظر عن إخبار صِدّيق بآلامه. لكن، مع استمرار احتضانه للشيشة، ارتفع الدم في رأسه المنهك وأفصحت آلامه عن نفسها، ففقد الوعي وبقي جسده ممدّدًا على الحصير الخشن، ومن حوله رفاق الشيشة المعتادين على ضحاياها.

لم يطمئنّ صدّيق لسقوط الحجّام خفيفًا تحت تأثير الأنفاس الزرقاء، وشعر أنّ بصاحبه علّة. لكزه في صدره ليوقظه، ثم صنع له كوبًا من القهوة السادة. استيقظ الحجّام واستيقظت معه آلامه، فقرّر أن يخبر صاحبه عن وجعه الطويل.

١٠

لم يكن الحجّام أوّل فاقد للوعي في الليلة المباركة هذه، فقد سبقته بيتا إلى إغماءة قصيرة، وكأنّ شادر صِدّيق العطّار فتح نفقًا بينه وبين عالم آخر، يعبره كلّ محتاج إلى قيلولة روح مهدّئة.

صارت بيتا خبيرة في الموالد بمسجد المرسي أبو العبّاس. تعرف شوادر أفضل المدّاحين وتذهب أحيانًا برفقة عالية أو سيّد الشاعر، وأحيانًا أخرى بمفردها لتؤدّي طقسًا تطهّريًّا فرديًّا.

وجدت بيتا بيلوتشي في المقهى يعدّ القهوة ويدبّر حال زبائنه. قال إنّ شابّة مثلها في حاجة إلى المرح، فلتأخذ اليوم إجازة وسيتولى هو أمر المقهى. صعدت بيتا إلى شقّتهم التي تعلو سيليني، وأخذت المايوه الأسود الذي تحبّه، ثم توجّهت إلى شاطئ ستانلي. رأت أن تجهّز نفسها بالاسترخاء على الشاطئ، لتكون مستعدّة لحلقة الذكر الليلة. لم يكن بيلوتشي يعرف أنّ مفهوم بيتا عن المرح يكمن في الدروشة المتواصلة في حلقات الذكر بالموالد، ولو عرف ذلك لدارت بينهما محادثة، بل جدال طويل.

أجّرت بيتا شمسيّة وكرسيًّا على شاطئ ستانلي. كان يومًا ربيعيًّا بديعًا. تناثرت الشماسي التي نصبتها الأسر القادمة للتنزّه على مسافات متباعدة. وقفت بيتا على الشاطئ تبلّل قدميها، ثم غمست جسدها في الأمواج المالحة. ما بين بيتا والماء قصّة غرام وانتقام. كانت تشعر أنّ الملح ينفذ عبر جلدها ويلثم مسامّها، وتربت عليها أمواج البحر وتحتضنها. لطالما منحتها السباحة صفاء في الذهن والروح. لم تكن تصدّق أنّ براحًا أزرق كهذا يمكنه أن يبتلع أجساد الأحباب ويغيّبها في قاعه، ففي مكان ما بداخله ترقد أمّها.

كان البحر اليوم حبيبًا منتقمًا يربك بيتا بالأسـئلة. لماذا جاء خالها بيلوتشـي إلى الإسـكندريّة ولم يعد إلى كالابريا؟ هل تحبّ ماركو حقًّا؟ لماذا سافرت أمّها إلى بلدتها بمفردها من دونهم؟ ولو أكملت بيتا طبق عشائها ليلة السفر وتعلّقت برقبة أمّها، فهل كانت سيلڤانا لتوافق على اصطحابها فغرقتا معًا؟

شعرت بيتا أنّ شمس الظهر أصبحت قاسية على رأسها. أحبّت اللون الذهبي الذي منحته لبشرتها سابقًا، لكنّها الآن تشعر بها سوطًا مؤلمًا. ظلّت تسـبح ذهابًا وإيابًا متحدّية الأمواج، ومن حولها يسـبح صـغار في عوّامات سـوداء مع آبائهم وأمّهاتهم. كان أحدهم يعلّم ابنه كيف يسبح ككلب ويأتمن البحر على جسده ليتمدّد ويهدهده بحنوّ، فيطفو فوقه مسترخيًا.

سـبحت بيتا بعيدًا عنهم. توجّهت نحو صـخور حادّة تسلّقتها وجلسـت فوقها تاركة أشـعّة الشـمس تتخلّلها. لمحت بين الصـخور قبّة خضراء صغيرة تصدمها الأمواج. ظنّتها من بعيد قنديل بحر لوّنته الطحالب بلونها. عند اقترابها، وجدتها قبّعة خضراء لأحد رجال القوّات الجوّيّة الألمانيّة وقد رأت بوضوح النسر والصليب المعقوف واسم صاحب القبّعة. تؤمن بيتا أنّ الجزاء من جنس العمل، لذا أعادت القبّعة إلى الأمواج علّها تحملها لأحد أحباب الجندي الغريق، فيردّ إليها القدر كرمها يومًا ويمنحها شيئًا له رائحة سيلڤانا.

مسـاء، في المولد، وجدت بيتا الممرّ المفضـي إلى ركن النسـاء في المرسـي أبو العبّاس خاليًا. وصـلتها أصـوات المردّدين خلف المدّاحين. تفرّقت النسـاء في صـفوف خلف الرجال في الشـوادر، وأغلبهنّ تواجدن بين المراجيح والألعاب تاركات ركنهنّ خاويًا. اخترق صوت مميّز فضاء الركن وجذب بيتا إليه، فجلست قليلاً تستمع إلى تداخل الأصوات. سيطر صوت الشيخ صِدّيق على أذنها، سارت خلف مديحه حتى وصلت إلى شادره الممتلئ ناساً. سدّ الرجال طريقها، لكنّها استطاعت أن تخترق الصفوف. من رآها أفسح للخواجاية الجميلة، ومن لم يرها التفت إلى صوتها المعتذر بلدغته المحبّبة.

وصلت بيتا إلى الصفّ الأوّل، وتمايلت مع المتمايلين... رنّيت يا كاس قولي على سبب رنّك... حرّكت بيتا رأسها الساخنة بحرارة الشـمس. رنّيت وحدك يا با ولاّ الهوا رنّك... كانت حركاتها أعنف من المعتاد ورأسـها مثقلاً بالأسـئلة والملح. سـقطت بيتا مغشـيًّا عليها، وفي إغماءتها القصـيرة رأت أنّها واقفة أمام مذبح كنيسـة القدّيس سـابا وفي يديها ديك وسـكّين نصـلها بارد يؤلم الديك ولا يذبحه. أمرها رجل واقف على باب الكنيسة... اذبحي... وعندما التفتت إليه، وجدته ظلاً أبيض. انقلبت حشرجة الديك في أذنها إلى صـراخ، وتحوّل وجه الديك إلى وجه أمّها، ورقبته إلى رقبتها. أصـبحت ملامح الظلّ الأبيض واضـحة، كانت لصـدّيق وهو يرطّب جبهتها بالماء البارد ويقرّب من أنفها البخور. استيقظت بيتا. وضعها أحدهم في حنطور وأوصلها إلى منزلها.

حملها بيلوتشي إلى حجرتها، كانت محمومة تبلغ حرارتها الأربعين درجة. كانت تهذي بأنّ عليهم شحذ السكّين جيّدًا، إن كان قدرها أن تذبح أمّها. أحضر لها جابي طبيبًا سويسريًّا أخبرهم أنّها ضربة شمس وأوصى بوضعها في مياه باردة. تبادل جابي وألبيرتيني وبيلوتشي الجلوس إلى جوارها، وتغيير قِرَب الماء البارد. بقيت بيتا بعدها في الفراش عدّة أيّام لتتعافى، وبيلوتشي وألبيرتيني يعدّان لها الحساء ويقيسان حرارتها.

بعد أن طابت بيتا، أخذت حمّامًا باردًا وأحضر لها بيلوتشي آيس كريم الفستق من محلّ بودرو. كانت ممدّدة على سريرها وصوت ليلى مراد منبعثًا من الجرامافون الفيليبس إلى جوارها...

مال عيونكم عطشانة عايزة إللي دايمًا يرويها...

ومال قلوبكم حيرانة مش لاقية حاجة ترضيها...

جلس بيلوتشي على مقعد بيتا الأثير، بالقرب من النافذة الخشبيّة التي لطالما راقبت بيتا عبرها شارع فؤاد الأوّل الممتلئ بالأجناس المتنوّعة التي تعبره يوميًّا. كان الوقت عصرًا والشمس قد بدأت تميل إلى الغياب. طلبت بيتا من خالها أن يطلّ على الشارع ويصف لها أوّل رجل يراه. كان جنديًّا إنجليزيًّا جلس على كرسـي أمام أحد المقاهي وتجمهر من حوله الأطفال، ماسـحو الأحذية، كما تنبّأت بيتا...

ـــــ العيال حتتلمّ عليه.

ـــــ الطفل الأضخم يضرب أصدقاءه. يبدو أنّه سيفوز، c›est la vie،

ـــــ no... خالي، الإنجليزي يختار على مزاجه.

ـــــ مساكين...

ضحكت بيتا من شفقة خالها على الصغار. أخبرته أنّ من يستحقّ الشفقة هنا هو الإنجليزي الأخرق الذي لا بدّ وأنّه قد فتح جرائده يقرأها، مسلّمًا قدميه للولد ذي الخبرة. قالت له أن يراقب الولد جيّدًا. لم يلحظ بيلوتشي أيّ حركة غريبة. لكن، بعدما دفع الإنجليزي جنيهًا كاملاً منتظرًا أن يردّ له الصغير الباقي، فرّ الولد واختفى في أوّل شارع بلغه وهو يضحك عاليًا. أمّا الجندي فبقي في مكانه مقيّدًا، إذ كان الصغير قد ربط فردتي حذائه إلى بعضهما بخفّة، فأصبح همّه أن يتحرّر من قيده أوّلاً، ليتحسّر من بعدها على ثمن مسحٍ فاق ثمن الحذاء نفسه.

وهكذا أخبرت بيتا خالها أنّ للعابرين بشارع فؤاد الأوّل قصصًا قصيرة أليفة، وبقليل من الخيال الحرّ، يمكن التنبّؤ بها جميعًا. لكنّ القصّة البعيدة، القصّة الأصعب التي تؤرّق القلب، هي تلك التي حدثت في كالابريا. فعندما غادرت سيلڤانا الإسكندريّة، حملت معها كلّ ما يخصّها، ملابسها ومجوهراتها البسيطة وصورها وخطاباتها التي تبادلتها مع بيلوتشي وأمّها منذ تركت كالابريا، فغيّب البحر كلّ ذلك في قاعه.

خرج بيلوتشي من حجرة بيتا، ثم عاد وهو يحمل حزمة من الخطابات المربوطة بشريط أزرق كانت كلّ ما يملكه من ذكريات أخته الوحيدة. تركها لبيتا وغادر وليلى مراد ما زلت تغنّي... إمتى يهون كلّ ده إمتى... ده إللي حوجني لكده إنت...

تناولت بيتا حزمة الرسائل بتأثّر، ثم سحبت من بينها ظرفًا فتحته بتأنّ وقرأت:

بيلوتشي، أيّها الصبي القصير،

كنت أظنّ أنّني سآكل الطين قبل أن أقول لك هذا، لكنّني حقًّا أفتقدك وأشتاق إليك. إنّه شهري الثاني في ميلانو وأنا سعيدة جدًّا... آه لو كنت معي يا بيلوتشي لترى بنفسك صالة الرقص التي تشبه رقعة الشطرنج. كلّ أسبوع تقيم بها السيّدة ماري مضيفتنا الكريمة حفلاً راقصًا. يرتدي الرجال الأسود، والسيّدات الأبيض، ويرقصون بأناقة، وكأنّ يدًا عُليا تحرّكهم كعرائس ماريونيت. صرت أنجذب للمعان ثريّات الكريستال المتدلّية من السقف كأنّني فراشة تهوى النار. إنّ ثمن واحدة منها يمكنها أن تطعم قريتنا شهرًا بأكمله.

بالمناسبة أعظم اكتشاف عرفته هنا، أنّ غرامك... إيلينا... حقيرة. الماكرة أوهمتنا أنّها تعرف كيف ترقص ولا أحد هنا يرقص كالقرود مثلها. لقد جعلتنا نقلّدها فصرنا ـــــ فتيات كالابريا ـــــ جيش من المهرّجات الساذجات. بسببها قضيت الحفلة الأولى جالسة على مقعدي أراقب الراقصين.

أختك جميلة يا بيلوتشي...

جاءتني ليلتها الكثير من الدعوات «الطيّبة» للرقص. وأنت بالتأكيد تعرف أنّ «الطيّبة» تلك تعني أنّ السادة أصحاب الدعوات كانوا وسيمين جدًّا وأثرياء. لكنّني رفضت بالطبع حتى لا أحرج نفسي بالخطأ في الخطوات.

كان أبي نجم الحفل الساطع. لقد أشعل بكمانه الحماس في القاعة ورفض أن أحكي لكم في الخطاب الذي أرسلناه إلى أمّي عن الفخر الذي جلبه لعائلتنا. إنّه لا يرى نفسه أكثر من عامل مجتهد يرعى شؤون أسرته. لكنّ السيّدة ماري وقفت لأجل تحيّته للمرّة الأولى في الحفل، وهذا شيء عظيم جدًّا في
ميلانو، ثم دعته إلى شرفتها العلويّة التي تراقب منها الحفل وعرضت استضافتنا بقصرها. قصرها ممتلئ بأجود العازفين من كلّ أنحاء إيطاليا، وأشهرهم مايسترو لاسكالا الذي سيختار عازفين جددًا ليضمّهم إلى الأوركسترا.

هل تظنّ مثلي أنّ هناك احتمالاً ولو واحدًا بالمائة أنّني لست أختك وأنّني متبنّاة؟ ما سيصير القدر لو كنت ابنة السيّدة ماري، مضيفتنا الكريمة؟ أنا أحبّ أمّي وأبي يا بيلوتشي... وأحاول أن أحبّك أيّها القصير، لكنّني سعيدة حقًّا في أروقة هذا القصر بعيدًا عن حقول الزيتون وأتربة كالابريا التي تخنق أنفي.

قبلاتي الحارّة لأمّي، حاول أن تسلّيها بأحاديثك وهي تطرّز قرب المدفأة. يعلم الله كم حُرمت تلك السيّدة من متع الحياة لأجلنا. هل تعلم أنّه في الوقت الذي كانت تحلّي فيه شايها بقطع البونبون المهرّبة من معسكرات الجيش، كان لدى السيّدات النبيلات هنا وفرة من السكّر يصنعن منها الكراميل لإزالة الشعر عن أجسادهنّ؟ لست بذيئة يا قصيري لكنّني أعرف أنّك تريد أن تصبح ممثّلاً مشهورًا، والفنّان لا بدّ وأن يعرف كلّ شيء.

إلى لقاء... أتمنّى ألاّ يكون قريبًا، فأنا أحبّ ميلانو.

سيلڤانا لورينزو باريستي

١٠ ـــ ١٢ ـــ ١٩١٩

١١

عندما أنجبت أمّها بهجة أخاها عبد الله، ظنّته رُقَيّة قطعة لحم حمراء غير مكتلمة النموّ، لكنّه صار فيما بعد أحبّ شخص إلى قلبها. حبّها له لا تعكّره أوامر ونواهٍ كتلك التي تشوب حبّها لوالديها. فقد كانت رُقَيّة تعتبره ملاكها الحارس الذي أرشدها، دونما قصد منه، إلى مدارج البهجة.

كانت تحكي له القصص وهو بحضنها حتى ينام، وتجلب له من السوق شوكولاتة بولان الفرنسيّة التي يحبّ ورقتها اللامعة. نزعت ذات يوم غلافها الفضّي، فوجدت بطاقة مجّانيّة لدخول السينما. لم تعرف ما تفعل بها وهي التي لم تذهب إلى سينما من قبل!

في اليوم التالي، أرسلها أبوها إلى صِدّيق العطّار. كانت سماء نوڤمبر رماديّة ملبّدة بالغيوم تنذر بقدوم نوة المكنسة بأمطارها الغزيرة. عند خروجها من العطّارين نحو شارع فؤاد، كانت السماء قد فتحت صنبورها وصبّت مطرًا سميكًا على رؤوس المارّة. احتمت تحت سقيفة تظلّل محلّ «باتا» للأحذية، وراحت تتأمّل الطريق المرصوف وهروب المارّة من الاستحمام الإجباري. رأت رجلاً يخرج مسرعًا من سينما ريالتو إلى جوارها، ينزع ملصقات الأفلام التي يذيب المطر ألوانها ويفسدها. أرته رُقَيّة الكوبون المحفوظ في ورقة الشوكولاتة...

ـــ إنت منهم، ألحقي حفلة ٣ بسرعة...

نظرت رُقَيّة إلى السماء الكريمة التي سكبت جوفها فوق الرؤوس، وقرّرت الدخول حتى ينتهي المطر. قضت رُقَيّة في الداخل ساعتين كاملتين كأنّهما دقيقتان. وعند انتهاء الفيلم، شعرت أنّها منجذبة إلى مقعدها بمغناطيس. لم ترد أن تعود إلى منزلها. فقط تمنّت لو يسمحون لها بالبقاء والعمل معهم.

كانت البطاقة المجّانيّة تعادل تذكرة تيرسو، فكفلت لها نصف مقعد في الناحية اليمنى من القاعة الصغيرة. شاركها في المقعد ولدان من بائعي الجرائد وضعا جرائدهما وورق اللوتاري عند أقدامهما وجلسا في خشوع. لم تكن رُقَيّة تعرف اسم الفيلم. مالت على الولد إلى جوارها تسأله، فأسكتها بعنف... هششششش... أظلمت القاعة وعُزف السلام الوطني، بينما كانت صورة الملك فاروق تملأ الشاشة الكبيرة.

بقيت الشاشة سوداء لدقيقة كاملة. في لحظات الانتظار هذه، دقّ قلب رُقَيّة بعنف. كانت سعيدة بالصمت المطبق على الجالسين وبصوت المطر في الخارج، ومتحمّسة لما سيظهر على الشاشة بعد لحظات...

استوديوهات مصر تقدّم

نجيب الريحاني

في... سي عمر

كانت مدّة الفيلم ساعتين إلاّ ربع بقيت خلالها رُقَيّة ساكنة وعيناها معلّقتين ببابيّون نجيب الريحاني، والحول البادي في عين عبد الفتّاح القصري، وتسريحة الشعر الطفوليّة لماري منيب. أمّا ميمي شكيب، فأسرتها تمامًا باللدغة الفرنسيّة التي تحيل الراء إلى غين. شعرت أنّ وجه نجيب الريحاني مألوف لها، كأنّها شاهدته من قبل في مكان ما، وعندما نصح ميمي شكيب بتناول زيت السمك صباحًا لتحافظ على نشاطها، بدا لها أنّه يشاركها بيت الحجّام ويوزّع نصائحه الطبّيّة مثل عائلتها. كان حقيقيًّا في عينيها، فلو مدّت يدها لتسلّم عليه لصافحها، ولم تكن الوحيدة التي تشعر هكذا. فعندما كان الريحاني والقصري في القطار يجفّفان جبهتيهما من العرق، منحها الولد الجالس إلى جوارها جريدة لتهوّي هي الأخرى فتساهم في ترطيب الجوّ الذي صار حارًّا فجأة...

القصري: أووف الجوّ حرّ أوي!

الريحاني: أيوه، الطقس حرّ أوي... والعة... لهاليب.

كانت عينا نجيب تتابع ميمي وهي تضع ساقًا فوق الأخرى وتحرّكهما بمرح. لفت نظر رُقَيّة خلخال بقلب صغير فوق كعبها الأيسر، ولم تعد رُقَيّة إلى منزلها يومها إلاّ ومعها خلخال فضّة رخيص.

شاهدت رُقَيّة «سي عمر» ثلاث مرّات. وعندما أعلنت سينما مترو أنّها ستعيد عرض فيلم الريحاني القديم، «سلامة في خير»، حجزت رُقَيّة تذكرتها ووقعت في غرامه. صار الريحاني رجل أحلامها بدون منازع.

أدمنت رُقَيّة مع عبد الله شوكولاتة بولان لعيون البطاقات المجّانيّة، وصارت تدّخر مصروفها القليل لتشتري التذاكر الترسو والتذاكر الصيفيّة لسينما ريو. شاهدت عشرات الأفلام الأميركيّة والأوروبيّة التي تحمل
ترجمة إنجليزيّة وفرنسيّة أسفل الشاشة، وعلى يمينها كانت رُقَيّة تتهجّأ الترجمة العربيّة.

افتعلت الحجج لتخرج من المنزل وقت حفلة الثالثة عصرًا، واختلقت أعذارًا متنوّعة لتبرير تأخيرها. تمنّت لو تذهب مع عائلتها إلى السينما، لكنّ أباها كان يرفض، فكانت تعوّض على أمّها وأخيها تلك السعادة الضائعة، بأن تعود إليهم بتسالي السينما: قراطيس والحرنكش وحبّ العزيز والعسليّة.

يوم السينما، يصبح مزاج رُقَيّة رائقًا. تعود إلى المنزل خفيفة وسعيدة، لا تهتمّ بصوت أبيها العالي أو بحزن أمّها. تشعل الوابور في حجرتها مساء، وتصنع الحِلْبة الساخنة التي تحبّها أمّها. تنام بهجة في حجرة ولديها ليلتها لتشاركهما دفء الحِلبة الممتع وغنيمة التسالي، ولتستمع لرُقَيّة تقصّ عليهما حكايات الأفلام وكأنّها من صنع خيالها الخاصّ، وترسم ما تجود به ذاكرتها ليقوم عبد الله بتلوينها.

من الأفلام التي انتظرتها رُقَيّة، فيلم الرسوم المتحرّكة، دامبو. كانت السينمات تعرض إعلانه القصير الملوّن قبل الأفلام، منذ ثلاثة أشهر...

والت ديزني تقدّم نجمها الجديد.

دامبو... الأذن الضخمة التي نبت لها فيلاً.

النميمة والشائعات تتحدّث عنه، عن الضيف الجديد في السيرك...

أمومة برِّيّة... صداقة بين فيل وفأر... قطار له شخصيّة وأفيال ورديّة.

كلّ هذا وأكثر في رائعة والت ديزني الجديدة... دامبو الفيل الطائر.

كانت رُقَيّة تقف في الطابور الطويل أمام شبّاك التذاكر، في أوّل يوم لعرضه في سينما ستراند التي كانت مقسّمة إلى قاعات صغيرة، تضمّ كلّ منها سبعين كرسيًّا كحدّ أقصى، وتعرض في الحفلة الواحدة عدّة أفلام متنوّعة.

إلى جوار ملصق فيلم دامبو، عُلّق ملصق لفيلم فرنسي من بطولة مارتين كارول، بدا أنّ أغلب الواقفين يقطعون تذاكره. شاهدته رُقَيّة في أسبوع عرضه الأوّل ولم يرق لها كثيرًا. لم تكن مارتين كارول ترتدي الكثير من الملابس في أفلامها، لذا أحبّت رقيّة أكثر مراقبة وجوه المشاهدين في الظلام. في مشهد الاستحمام، كانت مارتين عارية خلف منديل حريري يمسك به خادم وهي تتقدّم لتقفز في بانيو على شكل قوقعة، وفجأة هبّ أحد المشاهدين من الصفّ الأمامي واقفًا على أطراف أصابعه واشرأب بعنقه للأمام، ظنًّا من أنّه يستطيع ـــ هكذا ـــ أن يخطف نظرة إلى جسد مارتين العاري.

وجدت رُقَيّة سامية جارتها، ابنة مبيّض النحاس، واقفة إلى جوار شابّ في الطابور. كان يحيط خصرها بذراعه ويرتدي زيّ كمسري. لم تر رُقَيّة وجهه، فظنّته للوهلة الأولى سليم وشعرت بضيق لم تسمّه غيرة. كانت تردّد لنفسها دومًا أنّها حبيبة مخلصة لنجيب الريحاني وأنّه يملأ عينيها.

شكلّت الأفلام كلّ آرائها في الحبّ، لذا فهي قد رأت من الناحية الفنّيّة الصرف أنّ سامية لا تستحقّ سليم. فهو طيّب وهي لعوب. كان سليم الرزين كحسين صدقي، وسامية السخيفة كفاطمة رشدي. من الأنسب له أن يتزوّج من فتاة عاقلة ملوّنة العينين كأمينة رزق.

تلاقت أعين رُقَيّة وسامية، فتجاهلت كلّ منهما الأخرى حفاظًا على الأسرار التي تحملها تذكرة السينما. عندما استدار الشابّ لم يكن سليم، بل كمسريًّا آخر يعمل معه على خطّ الترام نفسه. وكما توقّعت رُقَيّة، لم يدخلا فيلم دامبو بل ذهبا لمشاهدة العزيزة مارتين.

لم تكن سامية الفتاة الوحيدة من شارعهم التي رأتها رُقَيّة في السينما. رأت كثيرات ولم يكنّ أبدًا وحيدات مثلها. كانت السينما محطّة مرور لقصص الحبّ، مثل الكورنيش، بل ربّما أفضل، فظلامها وموسيقاها صنعا عالمًا سحريًّا يصلح للقبلة الأولى وللأحلام الجامحة.

مع بداية الفيلم، تلاشى العالم الخارجي في ذهن رُقَيّة فانجرفت مع الفيل الصغير وحيوانات السيرك ومع الفأر الذي ارتدى بذلة تشبه زيّ الكمسري. أعجبتها الموسيقى والأغاني وفكّرت أنّ عبد الله أيضًا كان ليحبّها. كانت الفيلة الأمّ تحمّم صغيرها دامبو وترشّه بالماء بخرطومها، فشعرت رُقَيّة بحاجتها لوالديها وأنّبها ضميرها على كذبها عليهم. وفيما بعد، عندما ظهرت على الشاشة أفيال ورديّة ترقص وتغنّي، عرفت لماذا ستستمرّ بالكذب إلى ما لا نهاية. فهنا، تجد السيرك الذي لم يأخذها إليه أبوها. وتجد الرسومات التي كانت تتخيّلها في مخبأها فوق السطح وتخطّها على أوراق ليلوّنها عبد الله. تسمع الموسيقى والأغنيات فتطرب، كما لو كانت تسترق السمع إلى جرامافون جارهم وراديو القهوة. حتى مشاهدتها لأفلام مارتين كارول كانت
تعيد إلى ذهنها عادة التلصّص القديمة على الحجرة البحريّة عندما كانت تراقب مرضى أبيها، أثناء جلسات الحجّامة. في الأفلام فقط، وجدت رقيّة كلّ هذا المزيج البديع من الوجوه والحركة والأصوات والدراما، الذي جعل العالم من حولها مكانًا أفضل.

خرجت رُقَيّة من فيلم دامبو الملوّن وهي تفرك عينيها، لأنّها رأت الشوارع والناس بالأبيض والأسود، فالألوان الطبيعيّة في داخل القاعة، وكلّ ما بالخارج تقليد.

١٢

في عام ١٨٩٥، شغل الأخوان لويس وأوجست لوميير العالم بأعجوبة الزمان، سينماتوغراف لوميير. كانت الآلة المعجزة ثلاث آلات في صندوق واحد: كاميرا وآلة عرض وآلة طباعة للأفلام. عرضا أوّل أفلامهما في جراند كافّيه في باريس ولم تنتظرهما الإسكندريّة طويلاً. ففي عام ١٨٩٦، وبالقرب من نادي محمّد علي، أدارا صندوقهما في كافّيه زيواني. كان العرض الأوّل في الشرق الأوسط لفيلم «العمّال يغادرون مصنع ليون». كانا أشبه بساحرين طيّبين حملا بلّورتهما إلى شارع فؤاد الأوّل، فرأى المشاهدون عمّالاً يتحرّكون على الملاءة البيضاء. اندهش الحاضرون وتبادلوا الهمس... إنّهم يتحرّكون!

اقترب الإيطالي ديللو سترولوجو من الملاءة ليقبض على العمّال المتحرّكين، فضرب كفّه لويس لوميير، وصار الإيطالي ديللو من ثم، من المورّدين الأوائل للأفلام وآلات العرض في الإسكندريّة.

أشعل الأخوان شرارة السحر في المدينة ثم رحلا. رحّبت المسارح بالأفلام وآلات العرض وصارت التياتروهات تقدّم في برنامجها المسائي عملاقيْ الفنون: مسرحيّة وفيلم في بروجرام واحد. كان في الإسكندريّة عشرات المسارح التي تأوي مئات الفرق المسرحيّة التي كانت تتشكّل وتنفصل يوميًّا وتنشأ عنها فرق جديدة، عمل فيها المئات من فنّاني وآرتيستات الدرجة الأولى والثانية والثالثة.

إحدى تلك الآرتيستات غيّرت حياة جابي إلى الأبد. لم تجمعها به قصّة حبّ أو صداقة أو عداوة، ولم يسمع باسمها من قبل، لكنّه سرق لأجلها فستانًا أبيض وفتحت له عالم الإسكندريّة الليلي حيث الدراما والكوميديا والغناء والرقص.

كان زاهر، صبيّ الفرن الذي يساعد سيلڤانا، صديق جابي المفضّل. بعد أن تناولا الكرواسون الساخن، همس زاهر في أذن جابي أنّه يحتاجه في مهمّة حياة أو موت. سوف ينقذان فتاة جميلة من الانتحار. سارا معًا إلى سوق شيديا، وهناك طلب زاهر من جابي أن يشغل المكوجي فيبعده عن محلّه حتى يتسنّى له أخذ الفستان الأبيض المعلّق على النافذة. وقف جابي أمام المحلّ وراح يبكي كطفل تاه من أمّه. خرج المكوجي إليه فظلّ جابي يثرثر بالإيطاليّة مردّدًا بين جملة وأخرى... ماما.

كان لجابي ابن الثانية عشرة عينان واسعتان تأسران قلب من يراهما عندما تمتلئان بالدموع. تأثّر العجوز بذعر الفتى وخرج من محلّه مناديًا جاره البقّال الإيطالي للمساعدة. تناول زاهر الفستان الأبيض المعلّق وأمسك بيد جابي، ثم أخذا يجريان. رآهماالعجوز وذيل الفستان محلّقًا خلفهما، فصرخ في منتصف السوق...

ـــــ حراااااااامي.

اختبآ في شارع جانبي يربط السوق بشارع اللاجيتيه، ودلفا منه إلى مقهى مزدحم ليذوبا في زحامه. هناك تعرّف إليهما فنجلي، المصوّر اليوناني صديق ألبيرتيني، فخبّأهما في بيته القريب.

وقف الثلاثة على شرفة فنجلي يراقبون الجمع الغاضب الذي تجمّع للنيل من السارقيْن، وهو يجري في الطرقات من دون أن يعثر لهما على أثر. نظر فنجلي إلى جابي مستفهمًا، وجابي نظر بدوره إلى زاهر، فحكى حكايته مع روح، الفتاة الشاميّة التي تعمل آرتيست درجة ثالثة بتياترو السعادة.

كانت ظروف العمل المسرحي في الشتاء صعبة، فكلّ الفرق الكبيرة تعمل في القاهرة، أمّا في الإسكندريّة، فيومًا تجد روح عملاً، وشهورًا تبقى عاطلة. ذات يوم، رهنت روح فستانها لدى المكوجي العجوز لتدفع أجرة البانسيون الذي تقيم فيه. لكنّها احتاجته الليلة لتمثّل دور أرستقراطيّة تركيّة، متزوّجة من رجل ثري وتعمل فاطمة رشدي خادمة في قصرها. كانت روح صديقة أختها رتيبة رشدي، لذا أكرمتها فاطمة بدور في إحدى مسرحيّات عزيز عيد تقول فيه جملتين كاملتين.

طوال مشوارها الفنّي، كانت روح تؤدّي دور جارية في مسرحيّات ألف ليلة وليلة، تجلس حاملة مروحة من الريش لترطّب الهواء من حول شهريار. كان الدور الجديد فرصتها لتخرج عن صمتها ويسمع جمهورها الحبيب صوتها. هدّدت زاهر: إن لم تحصل على الفستان وتؤدّي الدور، فستلقي بنفسها في الماء المالح... الوداع حبيبي زاهر، الوداع... هكذا قالت له!

مساءً، ذهبوا ثلاثتهم إلى التياترو حاملين الفستان الأبيض وشاهدوها وهي تصرخ في فاطمة رشدي، بصوت جهوري... إطلعي بره قصري... فلاّحة حقيرة عايزة تخطف جوزي... صفّق ثلاثتهم بحرارة وصفّر زاهر لحبيبته مطوّلاً.

عند انتهاء المسرحيّة، صفّق الجمهور بحماس ووقف تحيّة لأبطالها. حينها، شعر جابي أنّه شارك في عمل عظيم، أعظم من كلّ مسائل الحساب التي أجاد حلّها، ومن كلّ موضوعات الإنشاء التي كتبها بالعربيّة والإيطاليّة والفرنسيّة.

انقطعت أخبار روح منذ سفرها مع فرقة عزيز عيد، في رحلتها الفنّيّة إلى بغداد. اعتقدوا أنّها ربّما رجعت إلى عائلتها في الشام، أو تزوّجت من رجل صارم قطع كلّ صلاتها بالماضي. لكن ما ثبت هو أنّها لم تكمل مشوارها الفنّي ولم تصبح ممثّلة شهيرة، إذ لم يروها مجدّدًا لا فوق خشبة مسرح، ولا على شاشة سينما، هم من كان يطلق عليهم عمّال المسارح ودور العرض لقب قراصنة وسط البلد.

لم يُعرض فيلم إلاّ وكانوا قد شاهدوه مرّة واثنتين وثلاثًا. كانوا أوّل من يدخل إلى قاعة العرض وآخر من يخرج منها. نقشوا أسماءهم على مقاعد الصالات الأماميّة وضربوا من يجلس عليها بدلاً منهم. كانت ملكًا لهم، مصعدهم المباشر إلى السماء. فعند ذلك

القرب من الشـــاشـــة، كان باب الحلم ينفتح لثلاثتهم، فيعيشـــون المشـــاهد وكأنّها جزء من حياتهم الخاصّـــة. يقبّلون البطلة الجميلة، وينتصرون على الأعداء، ويموتون موتًا مجيدًا نصرة للعدل والسلام.

تنافســـوا فيما بينهم، من بين ثلاثتهم هو أفضـــل من يقلّد أبطالهم المحبوبين؟ ثم اجتمعوا على مهارة جابي في التقليد. كان نســـخة مصغّرة من تشارلي تشابلن، يتحوّل في دقائق من الفتى ذي الشعر الأسمر الكثيف والعيون الواسعة، إلى متشرّد أخرق خفيف الظلّ. لكنّهم اختلفوا حول موهبتيْ زاهر وفنجلي وتبادلوا السخرية حولهما. كان فنجلي ينتصر دومًا. فعندما يسخر جابي وزاهر منه، كان يهدّدهما بفضح السرّ. ولأنّ إطلاع سيلڤانا على أنّهما سارقان حقيران يشكّل كارثة كبيرة، كانا يؤثران الصمت والانحناء أمام موهبته الدراميّة الفذّة وهو يقلّد يوسف وهبي قائلاً... يا للهول!

كره جابي وزاهر أداء فنجلي، لكنّهما أحبّا العمّ العجوز وحكاياته التي لا تنتهي. عام ١٩٢١، بينما كان زاهر وجابي رضـــيعين أبلهين لا يملاّن النظر إلى أصابعهما، حضر فنجلي العرض الحصريّ لفيلم تشارلي تشابلن، «ورطة مابل الغريبة». كان واحدًا من الأفلام التي اشـتراها السـيّد بنيوباردي الإيطالي، ليفتتح بها سـينما الأوليمبي. يومها اسـتعان بأوركسـترا موسـيقيّة كبيرة لتعزف مصاحبة الأفلام الصامتة. هنّأه فنجلي على حسن اختياره وأخبره السيّد الإيطالي أنّه يحبّ الموسيقي جدًّا. بعدها بخمسة عشر عامًا، شارك بينوباردي رياض السنباطي في تلحين فيلم وداد لأمّ كلثوم. كان الأجنبي الأوّل والأخير الذي عمل مع كوكب الشرق. وعندما شاهد فنجلي اسم بينوباردي مكتوبًا في التترات، شعر بفخر كبير لأنّه سلّم ذات يوم عليه.

حضـر فنجلي الليالي الافتتاحيّة لكلّ سـينمات وسـط البلد. عاصـر تحوّل المكان من تياترو إلى سـينما، وكيف ابتكر ملاّكوها طرقًا لجذب المشـاهدين وبيع المزيد من التذاكر. أخبر جابي وزاهر أنّه قبل عصـر ترجمة الأفلام، كانت السـينما تؤجّر مترجمًا يقف إلى جانب شاشة العرض ويشرح الدراما للمشاهدين. لطالما كرهه فنجلي عندما يتنبّأ بالأحداث القادمة مفسدًا عليه متعة الترقّب.

فيما عدا ذلك، أحبّ فنجلي كلّ ما كان يدور داخل القاعات المظلمة. كان يشـــتري التفّاح المغطّى بالكراميل والجاتوه، وينادي مع الجمهور على عارض الأفلام ليعيد عليهم مشاهد العراك، أو يجمّد الشاشة على القبلات الحارّة.

حدّثهما أيضًا عن السينما الناشئة في زيزينيا، لم يكن صاحبها قد أكمل بناءها بعد، وكان سقفها عبارة عن ألواح خشبيّة متراصّة. ذات يوم، أمطرت سماء الخريف على خلاف عادتها ونزلت المياه على رؤوس المشاهدين. ومع ذلك، لم يترك أيّ منهم مقعده. وزّع عليهم صاحب السينما مظلاّت. أعجبتهم السينما الشتويّة، فلم يرمّم صاحبها السقف، إلاّ عندما سقط لوح على أحد الجالسين في نوة عنيفة ففقد وعيه لدقائق، ثم استيقظ مطالبًا بالمزيد من الأفلام القصيرة.

في لحظات استغراقه في المشاهدة، كان فنجلي يشعر بسعادة لم يجدها في أيّ شيء أو مكان آخر. شعر بها عندما حمل بين ذراعيه ابنته الأولى كاترين... كان ذلك أشبه بملامسة حياة جديدة عن قرب.

كان عمل فنجلي الأساسي في تجارة الأقمشة التي جعلته ميسور الحال. في بداية زواجه، عندما كان بإمكانه إقناع زوجته بأفكاره، أخبرها أنّ الأستوديو الفوتوغرافي مشروع مربح، وصدّقته. منحته من مالهما المدّخر ليشتري كاميرا، وأسّس أستوديو سيليني.

لم يمكث فنجلي طويلاً في الأســتوديو. كان مغرمًا بالتقاط الصــور الغريبة. حمل كاميراته ودار في الطرقات باحثًا عن صــعاليك الشوارع. صوّر بائع الجرائد الأعرج الذي يحجل في الطرقات، ونادل بار الفردوس ذا العين الواحدة. صار هؤلاء أصدقاءه ومنبع إلهامه، فيما أهمل زبائنه المنمّقين الأثرياء الذين يدفعون الكثير من المال.

في واحدة من رحلاته السنويّة إلى قبرص ليشتري الأقمشة، باعت ابنته الكبرى كاترين الأستوديو إلى عائلة ألبيرتيني. ظنّت الفتاة أنّها تحمي أباها من أشباح حجرة التحميض الحمراء التي تلهيه عن تجارته وأمواله. غضب فنجلي بشدّة وشعر بالخيانة والضعف. قاطع أسـرته واسـتعان على غضـبه بخمر بار الفردوس الرخيص. في آخر الليل، كان ملجأه أكتاف أصـدقائه حيث يتشـارك بائع الجرائد ونادل البار في حمله إلى منزله بشارع اللاجيتيه.

في ليلة من ليالي أغســطس الخانقة، رأى فنجلي في البار رجلاً وحيدًا. كان جلده ممتلئًا ببقع داكنة من آثار جدري قديم، يحتســي البيرة على مهل، يضــع الملح على طرف كوبه، ثم يعصــر الليمون على لســانه، ويتبعها برشــفات من بنّورة البيرة. بدا لفنجلي أنّ الرجل يغيب في طقوس شرب البيرة، مبتعدًا عن الصخب الدائر من حوله، كأنّه ملك عالمه.

وضـــع النادل ذو العين الواحدة طَبَق الترمس أمام فنجلي وقال له... مش غيتك الخلق التعبانة، صـــوّره... شـــعر فنجلي أنّ كلّ ما يحتاجه هو كاميرته. في اليوم التالي، ذهب إلى ألبيرتيني فوجد الكاميرا مخزّنة في حجرة التحميض، كأنّه لم يتركها يومًا. أخرجها وشـعر أنّه يحبّ ابنته كاترين جدًّا. ففي الوقت الذي ظنّت أنّها أبعدته عن هوســه، كانت قد أزاحت عن كاهله عبء الأســتوديو. لقد أصبح مصوّرًا حرًّا، كما كان يحلم دائمًا.

لم يعد البقاء في سيليني يضـجره كما كان في الماضـي. سمح له ألبيرتيني باستخدام حجرة التحميض، فكان يشـاركه أكواب القهوة بعد أن ينتهي من عمله. وأثناء جلساتهما تلك، اكتشف فنجلي أنّ سيليني المقهى مشمّس وهواءه رطب أكثر من سيليني الأستوديو.

كان جابي أكثر المستفيدين من صداقة فنجلي وألبيرتيني. فبينما كان زملاؤه في معهد دون بوسكو الإيطالي يتفاخرون في ما بينهم بالصـــواريخ الورقيّة التي يجيدون صـــنعها، كان يحدّثهم هو بطلاقة عن طرق التحميض وكيفيّة التعامل مع الكاميرا. فالســـاعات الطويلة التي قضاها جابي مع فنجلي، جعلت منه مصوّرًا لا يهاب الكاميرا.

عندما اشـترى زاهر درّاجته الجديدة، طلب من جابي أن يصـوّره. وافق جابي شـرط أن يعلّمه زاهر قيادة الدرّاجة. كان زاهر فتى التوصيل الأوّل في العطّارين. وقد استطاع أن يدّخر من ماله ويشتري تلك الدرّاجة، بعد أن عمل لسنوات عدّة أمام فرن الصـالحي. صـارت درّاجته بمثابة جناحيه، يحلّق بهما مبتعدًا عن حرارة الأفران. وإن ظلّ يسـاعد سـيلڤانا في عملها، فلأنّها كانت صـديقته وأمّ صديقه. صار يوصل اللبن صباحًا، وينقل الدقيق للمطاعم القريبة.

كان زاهر ينتظر جابي بعد الدوام الدراسـي، أمام المعهد باللّبان. يركب جابي خلفه على الدرّاجة التي تأخذهما إلى شـوارع بعيدة لا يعرفهما بها أحد. وعندما كانا يشعران بالجوع بعد الدوران الطويل، كانا يلعبان مع الباعة لعبة الطفل التائه. لم يكذّب أحد يومًا دموع جابي. يتباكى جابي ويســرق زاهر لهما التفّاح الأميركاني والخبز الفينو. وإذا كشــف أحد الباعة ســرقتهما، يطيران بالدرّاجة فيما الشتائم تبارك خطواتهما.

في الســينما، كان جابي وفنجلي يتناوبان على ترجمة الأفلام الأجنبيّة لزاهر. ذلك أنّه لم يكن يجيد القراءة والكتابة، كان يعرف فقط كلمات مثل ســارق وحقير وابن كلب بأكثر من عشـر لغات. كان أيضًـا يعرف أشـهر المخرجين، حكايات عملهم بالسـينما وأحدث المعارك الدائرة في هوليوود، وكان يمكنه أن يروي من الذاكرة أقدم الأفلام بتتابع مشاهدها ودونما خلط.

عندما جاء بيلوتشـي إلى الإسكندريّة بآلة عرضـه، كان يفكّر في مكان صـغير يمكنه أن يعرض فيه بكرات الأفلام التي قام بشرائها وتعاقد مع شركة فرنسيّة لتورّد له المزيد منها، لكنّه وجد نفسه بين ثلاثة مهووسين بالشاشة. يطلب منهم أن يشاهد فيلمًا، فيأخذونه لمشاهدة العشرات من الأفلام الأميركيّة والفرنسيّة واليونانيّة والإيطاليّة. يطلب أن يزور دارًا للسينما، فيجعلونه يزور عشرات الدور المتناثرة في شـرق المدينة وغربها. سينما ستراند وأوليمبيا وكوزمو وريو وريالتو وأمير وألف ليلة والهامبرا والأنفوشـي وباكوس وكامب شـيزار وكيلوباترا وإدين والماجيسـتك وغيرها. كان يعدّ المقاعد ويقارن بين أســعار التذاكر ويراقب مزاج الجمهور الذي يختلف بين منطقة وأخرى. فجمهور صـــالتي الأنفوشـــي ومحرم بيه مثلاً، من العمّال المهووســـين بأفلام المعارك والإثارة؛ وأيّام الجمعة، كان الجميع يفضّل الأفلام الكوميديّة.

وبفضـل الصـداقات المتنوّعة للقراصـنة الثلاثة، اسـتطاع بيلوتشـي أن يصـل إلى حجرة العرض العلويّة، فتعرّف إلى العارضـين المحترفين المنتبهين للبكرات والآلات، والعارضـــين الســـذّج الذين يتعاملون معها بشـــكل أخرق فيحرقونها أحيانًا، أو يخلطون في البكرات فيعرضون الجزء الثاني قبل الجزء الأوّل، مثيرين بذلك
سخط المشاهدين الذين يصرخون بهم... سيما أونطة هاتوا فلوسنا...

في سـفره الطويل، رأى بيلوتشـي مدنًا تشـترط بناء دور العرض بعيدًا عن الكنائس بستّين مترًا، ورقابة تشـترط قصّ القبلات من الأفلام، وحكومات تشترط عدم السخرية من الشخصيّات الشهيرة. جاء بيللوتشي بحلم صغير، بناء دار تتّسع لسبعين شخصًا، ولم يجد مثل هذه الحواجز في المدينة المطلّة على البحر. وبعدما ساعده ابن أخته وأصدقاؤه في التعرّف على دورها المتناثرة، تسارعت أحلامه لتلحق بإيقاعها النشيط، فصـار يفكّر في دار كبيرة تعرض أفلامًا متنوّعة، رومانسيّة وخفيفة الظلّ، معارك تاريخيّة، صـامتة وأخرى متخمة بالحوار، بدون قطع لقبلات مارتين كارول، أو تخوّف من حوار يسخر من هتلر.

بدا كلّ شـيء مرحّبًا ببيللوتشـي وحلمه، ولم يبق إلاّ توسـيع سـيليني وتجهيزه. اقترح زاهر أن يكون الافتتاح بفيلم مضـحك يجذب العائلات، ورأى فنجلي أن يحوّلوا غرفة التحميض إلى غرفة عرض. أمّا جابي، فقرّر أنّ عليهم شـــراء المنزل الذي يقع خلف سيليني... وكان منزل الحجّام.

١٣

حلمت بيتا أنّها ضلّت الطريق إلى المرسي أبو العبّاس وسارت في حواري غريبة عليها لم ترها من قبل. في الحلم، ارتدت سيلڤانا جلبابًا أسود وأطلّت عليها من شرفة مرتفعة، ثم هبطت نحو الأرض.

سارت وبيتا تتبعها. كانت سيلڤانا متحمّسة تشير إلى أركان ضيّقة وتعيد على مسامع بيتا: هنا هنا... ثم توقّفت عند الأركان تحفر في ترابها كمن يفتّش عن شيء مفقود، إلى أن أشارت إلى بقع حمراء على الأرض وقالت إنّها دماء ركبتيها اللتين كشفت عنهما. رأت بيتا جرح أمّها النازف فجرت لتجلب ضمّادات، وعندما عادت، كانت سيلڤانا تحلّق عاليًا، نحو مئذنة المرسي أبو العبّاس ودماؤها تمطر فوق بيتا. ظهر بين بيتا وبين المسجد سور عال، فوقفت عاجزة لا تعرف أين تذهب، فلا هي قادرة على اللحاق بأمّها، ولا على الدخول عبر الباب. شعرت بالشلل يسري في ساقيها، فاستيقظت فزعة.

أفسد الحلم مزاج بيتا، واستيقظت من دون أيّ رغبة في العمل. كان أمامها يوم عمل طويل، لكنّها مكثت في السرير. أخرجت خطابات أمّها تفتّش فيها عن تفسير ما لحلمها المزعج...

صديقي بيلوتشي،

قبلاتي وأشواقي لك ولأمي...

إنّ الأخبار التي أرسلناها لكما سابقًا صحيحة جدًّا. يبدو أنّ الحياة خارج كالابريا تسير أسرع وأنشط. ظنّنا أنا وأبي أنّ المايسترو سيضمّه إلى الأوركسترا، ففكّرنا في بيع الحقل والانتقال إلى ميلانو. وكنت قد بدأت في البحث عن منزل صغير يلائم أسرتنا الحبيبة. لكنّ المفاجأة كانت قويّة حقًّا... أخبرنا بها المايسترو ونحن نحتسي الشاي في الحديقة.

أبي سيشارك لاسكالا في العزف بالأوبرا الخديويّة بالقاهرة...

نعم إنّها هي... المدينة المصريّة بأهراماتها الثلاثة. وإن كنت عرفت أنّ الأهرامات تقع خارجها في مدينة تدعى الجيزة... لا تضحك من دقّتي، لقد صرت مثقّفة جدًّا بفضل مكتبة السيّدة ماري.

الجميع هنا يعاملها كأرملة عجوز غريبة الأطوار. ولولا ولعها بالموسيقى، لأصبح قصرها خاليًا. لكنّني أحبّها وأشفق على غرابتها. أظنّها كانت جميلة في شبابها. اللوحة الضخمة في صالة الرقص تشي بأنّها كانت فتاة لعوبًا. إنّها أمور يدركها المرء من نظرة العينين. الآن هي وحيدة جدًّا، تطرد أقرباءها وتنعتهم بالخنازير الجشعة.

لديها طقوس خاصّة في النوم. لتصل إلى سريرها، عليّ أن أساعدها لتصعد سلّمًا من عشر درجات، أمّا ستائر حجرة نومها فشفّافة... أنا وخادمتها نحمد الربّ أنّ أقرب قصر لها يبعد عنّا عشرات الكيلومترات، وإلاّ لتلصّص الجيران على نومها. هل تتصوّر أنّ امرأة ثريّة مثلها لا تنام ليلها في هدوء، فتبقي حجرتها مضاءة بالكثير من الشموع وتوقظها الكوابيس عدّة مرّات في الليلة الواحدة... أظنّها تخاف من كلّ ما يذكّرها بالقبر... لا أستطيع التوقّف عن الحكي عنها، ربّما لأنّني أدين لها بالكثير. وسأستعين بواسطاتها لتجعلني أسافر مع أبي إلى بلاد الفراعنة...

لقد قرّرت مساعدتها. صرت أقرأ لها حتى تنام. لديها في مكتبتها مسرحيّاتنا المفضّلة. إنّني أتذكّرك بكلّ الحبّ، وأنا أقرأ عليها أحاديث المهرّج للملك لير، وأضحك عندما ترنّ في أذني نبرات صوتك الساخرة، أو أسترجع تقليدك المضحك لحركاته...

أووه يا قصيري، لقد جعلت منّي ميلانو فتاة عاطفيّة... بمناسبة الحديث عن العواطف، لا تحزن على هجران إيلينا الحقيرة. إنّها لا تستحقّك. عليك أن تشعر بالحزن على العزيز ماريو. إنّ هذا الفتى طيّب جدًّا فقد احتمل ضغط كعبي على قدميه أثناء الرقص في كلّ الحفلات، ولم يملّ من دعوتي. المسكين، سيصبر كجمل على إيلينا العجفاء وهي تطبق على أنفاسه طوال حياته...

أمّا أنت يا صديقي، فطِر حرًّا... كان سينتهي بك الحال معها إمّا قاتلاً أو مقتولاً...

أنا لم أشكرك من قبل أنّك تركتني أسافر مع أبي وبقيت أنت مع أمّنا...

أشــعر أنّ طرقًا كثيرة بانتظارك لتســير بها ومدنًا عدّة لتزورها. لكن عليك أن تعدني ألاّ تترك أمّي بمفردها، لا أريد أن ينتهي بها الحال كالسيّدة ماري.

رجاء، انتظر عودتنا أو على الأقلّ عودة أبي...

أختك المُحبّة

سيلفانا لورينزو باريستي

١٠ ــ ١١ ــ ١٩١٩

كانت علاقة سيلڤانا ببلدتها كالابريا أمرًا محيّرًا لبيتا. فبعد سعي طويل للهروب منها، عادت إليها طواعيّة. سألت بيتا نفسها، لماذا كلّما حلمت بأمّها كان الحلم في كالابريا وهي تفتّش عن شيء ضائع؟ وما هي الأشياء الضائعة التي تجعل روح سيلڤانا قلقة هكذا؟ شــعرت بيتا بالأســى على أمّها. كانت امرأة حزينة في أيّامها الأخيرة، لا تتوقّف عن البكاء. لا تتذكّر بيتا متى بدأت نوبات الحنين تنال من روح أمّها، وهل هو الحنين فعلاً كما أخبرها أبوها، أم أسباب أخرى لم تدركها بعينها كطفلة؟

أخرجت خطابًا آخر وأخذت تقرأه...

أخي الحبيب بيلوتشي...

تحيّاتي وسلامي. أرسل لك ولأمّي أشواقي الدافئة بدفء شمس الشرق العفيّة. أنا سعيدة جدًّا بأخباركما الطيّبة، وببهجة أمّي بثلوج العام الجديد. عيد ميلاد مجيد لكما. هل تعرف أين سأحتفل بأعياد الميلاد هذا العام؟ في فندق شبرد الأرستقراطي. إنّه يشبه فنادق ميلانو الغالية. أستيقظ فيطالعني يوميًّا نهر النيل العظيم، وتشهد رؤوس الأهرامات المثلّثة على إفطاري الملكي.

وقت العصر، يمتلئ تراس شبرد بالسيّدات الإنجليزيّات. تطوّع الخادم المصري الأسمر، وهو صبيّ صغير في الثامنة، وأخبرني بالسبب الرئيسي لمجيئهنّ، ألا وهو البحث عن عرسان لفتياتهنّ بين جنود الإمبراطوريّة العظمى. غازلني قائلاً إنّهنّ لو كنّ جميلات مثلي، لما احتاجت أمّهاتهنّ إلى المكوث في الشمس طويلاً ليصطدن لهنّ أزواجًا. كلّ ذلك بإنجليزيّته الركيكة التي لاءمت إنجليزيّتي الأضعف.

ودّعتنا السيّدة ماري بنفسها في ميناء جنوى وأهدتني أسطوانة: أوپرا عايدة لفيردي. استغرقت رحلتنا من جنوى إلى بورسعيد أربعة أيّام عانى فيها أبي من دوار البحر. كان مريضًا جدًّا، ظننته سيُسقط معدته في نوبة قيء عنيفة. كانت أسطوانات السيّدة ماري عزاءه الوحيد في الرحلة الطويلة.

معدتي كانت قويّة. لكنّ الرواية التي كنت أقرأها أصابتني بهواجس عن الغرق. نصيحة لك من أختك الكبيرة. لا تقرأ رواية تتحدّث عن غرق السفن وأنت في عرض البحر.

عدا ذلك، كنت كحمامة علّموها الطيران حديثًا. لا، ليس هذا التشبيه الصحيح، بل حوتًا منحوه زعانف ليشقّ البحر. ولا هذا التشبيه أيضًــا. كيف أصــف لك أنّني شــعرت، وللمرّة الأولى في حياتي، أنّني حرّة وأتنفّس. رأيت عنان البحر الجميل، فشــعرت أنّ القادم أفضل وأنّ مخاوفي من البقاء في كالابريا، للزواج والإنجاب وطلب الرزق، صارت بعيدة جدًّا.

استغرقت الرحلة من بورسعيد إلى القاهرة نصف يوم قضيته في مشاهدة الصحراء، والقراءة عن المدينة التاريخيّة.

يوجد في العاصمة جالية إيطاليّة ظننتها كبيرة، لكنّهم أخبروني أنّها في الإسكندريّة أكبر بكثير. صلّينا معهم يوم الأحد السابق، في كنيسة العائلة المقدّسة بمنطقة الزيتون. إنّها كنيسة كبيرة، مثل كلّ الأشياء في هذه البلدة.

عثر أبي على صديق طفولته في القدّاس. أصبح الآن يدير شركة شهيرة للإستيراد والتصدير تدعى جوتاري. يستورد من روما الصابون والكونياك والأقمشة، ويصدّر البصل والقطن.

أعرف أنّك تتساءل ما لنا والبصل والكونياك، لكنّني أحاول منع نفسي من الحديث عن ابنه حتى لا أستبق الأمور، ومع ذلك لا أستطيع... أنت تعرف أختك، لو لم تحكِ ستموت خنقًا بالحكاية... اسمه ألبيرتيني... ألبير كما أحبّ أن أناديه... جمعتني به نوبة عطس متواصلة...

أثناء القدّاس، أشعلوا بخّورًا قالوا إنّه من خان الخليلي. كان نفّاذًا جدًّا ملأ الكنيسة وأنفي وقفصي الصدري. صرت أعطس بشكل متواصل. والقسّ الطيّب كان يقطع كلمته ليبارك كلّ عطسة مفردة أقوم بها...

ثم ازداد الأمر سوءًا مع الشلّال الأنفي الذي انتابني. أخبرت أبي بحاجتي الطارئة إلى منديل. بحث في جيبه ولم يجد معه، فهمس إلى صديقه الجالس بجواره، الذي همس بدوره إلى من بجواره. وهكذا تواترت الهمسات في الصفّ بأكمله، وكانوا جميعًا ميئوسًا منهم... رجال من دون مناديل.

خرجت من الكنيسة مبتعدة عن روائح البخور القويّة، وتبعني ألبير بمنديله للخارج، ومن يومها وهو يتبعني... كلّ ما حدث بعد ذلك، أنت تعرفه من خطابات أبي... نعم إنّه هو، ألبيرتيني، تلميذه الجديد النجيب. كان يزورنا في شبرد برفقة أبيه، ثم صار يأتي مصطحبًا كمانه.

إنّه يجلس أمامي الآن عازفًا مبتدئًا... وأظنّه عاشقًا كذلك... عندما يصبح ما بيننا معلنًا، لي على الأقلّ، ستكون أوّل من يعرف.

كن بخير دائمًا يا قصيري

صديقتك وأختك

سيلفانا لورينزو باريستي

٢٠ ــ ١٢ ــ ١٩١٩

١٤

لم تحسّن الخطابات مزاج بيتا. وازداد الأمر سوءًا عندما لم تجد الدقيق الكافي للخبز. كان جابي قد وعدها بإحضار مخزونهم في الأمس، وكعادته نسي. في أيّام أخرى، كانت ستتدبّر أمرها، لكن مع نوم مضطرب وبمزاج متعكّر، شعرت أن لا أحد يتحمّل معها أعباء العمل والبيت، وأنّها تتحمّل المسؤوليّة بمفردها. بحثت عن أخيها في حجرته فلم تجده. أخبرها أبوها الذي كان يحتسي قهوته أنّه خرج مبكرًا مع بيلوتشي. كان ألبيرتيني يغالب ارتعاشات يديه وهو يمسك بفنجان القهوة. أحضرت له بيتا من المطبخ شاليموه، ووضعتها على المنضدة، وشكت من جابي وإهماله.

كان ألبيرتيني معتادًا على خلافات ولديه، ولطالما ترك لهما حلّها من دون تدخّل منه. مازح بيتا قائلاً إنّه ربّما كان عليها الصلاة لأحد أوليائها لينعم عليها بمعجزة من السماء فتجد في المخزن كيلوغرامًا من الدقيق يحسّن من مزاجها. كان يضحك بقوّة جعلت ارتعاشات يديه عنيفة فسكب بعض من القهوة على بنطاله. تنتابه تلك الرعشات فقط عند تحريك اليدين، وتزداد حدّتها أثناء الانفعال.

شعرت بيتا بالضيق من سخرية أبيها وحدّقت في البقعة التي عليها تنظفيها، ثم وجدت نفسها تصرخ في وجهه أنّ الله خلق الشاليموه لاستعماله بدلاً من إفساد الملابس بالبقع! أدركت بيتا فورًا أنّ صوتها كان مرتفعًا وأنّها كانت قاسية على والدها، فأخذت منديلاً وبدأت في إزالة القهوة. أمسك أبوها معصمها، فانتقلت إليها رعشات يديه وتسارعت نبضات قلبها. أبعد يديها بقوّته المهتزّة وتركها في الشرفة بمفردها. طارد بيتا شعور العجز الذي حلمت به صباحًا، وأحسّت أنّ البيت والمقهى صارا يضيقان بها ولا يتّسعان لتبرّمها الصباحي. فخرجت وذهبت من شارع فؤاد نحو محرّم بك حيث يقطن ماركو.

أمام باب شقّته، رفعت السجّادة الصغيرة فوجدت المفتاح الاحتياطي الذي يتركه لها دومًا. تردّدت قبل استعماله، وفي النهاية طرقت الباب. فتح لها ماركو وظلّ واقفًا في الباب يسدّ طريقها بجسده. نظر إليها معاتبًا على الغياب الطويل.

ـــــ فطرت؟ سألته بيتا.

لم تكن بيتا تتوقّف عن التنقل بين الغرف والمطبخ. كانت تعيد ترتيب الكراسي وتغسل أطباقًا لم تأكل بها ولا تسأل من أكل بها، تبدّل شراشف لا تعلم من نام عليها ولا تهتمّ، تغلق أبواب الغرف وتفتح النوافذ ليدخل عبرها نور الشمس. شغلت نفسها بالأعمال المنزليّة في بيت ماركو حتى لا تفكّر بالحلم وبقسوتها على أبيها.

كان ماركو يعرف أنّ الأيّام التي لا تتوقّف فيها بيتا عن الحركة، هي أيّامها الصعبة. جلس بصمت يتناول البيض الذي قلته له، فيما كانت هي تنظّف المقاعد المغبرّة المتربة. وجدت قميصًا مرميًّا أسفل مقعد، كان أبيض في زمن آخر، وصار رماديًّا. اصطنع ماركو فرحًا بعودة قميصه المفقود، آملاً أن يبدأ معها أيّ حديث يكسر صمتهما. لكنّها نظرت إليه باندهاش كأنّه فاجأها بوجوده معها في الحجرة.

أخذت القميص وتوجّهت نحو الحمّام. في الداخل، كانت سلّة الملابس المتّسخة ممتلئة. وجدت فيها ملابس نسائيّة ملوّنة ليست لها. شعرت بالاطمئنان لوجودها، كأنّ روحًا أخرى حلّت بينها وبين ماركو ومنحتها مساحة براح.

عندما سمع ماركو صوت صبّ المياه في آنيّة الغسيل واحتكاك الملابس والصابون بآلة الدعك المعدنيّة، عرف أنّ بيتا رأت الملابس النسائيّة ولم تتبرّم، بل انحازت كعادتها للتجاهل والتنظيف.

اتّجه ماركو نحو الجرامافون، بحث بين أسطواناته عن أغنية تخرجها من الحمّام، فوجد أسمهان وفريد الأطرش وليلى مراد ومحمّد عبد الوهاب وإيلاّ فيتزجيرالد والأخوات أندروس ونجاة علي. اختار أسطوانة حديثة تداعب فضول بيتا. كانت للمغنّي الشابّ الجديد الذي اعتبره ماركو اكتشاف العام، فرانك سينترا...

My soul,

Filled with desire,

Two arms craving the one I admire

بدا الصوت جميلاً. تنصّتت عليه بيتا بين صخب الماء والمزاج العكر. أنهت ما بيدها، ثم خرجت وهي تحمل سلّة الملابس المغسولة. احتضن ماركو الجرامافون وتبعها إلى السطح.

في الأعلى، ناول ماركو بيتا الملابس. كانت تعصرها وتنشرها مرتّبة وفقًا لألوانها. حين انتهت من نشر الغسيل، سكبت ماءه على رأس أوّل عابر من تحتها، ثم سحبت ماركو من يديه بسرعة ليختبآ خلف السور فلا يراهما الرجل المستحمّ.

كان فرانك يغنّي في حين كان الرجل المبتلّ يسلسل أنسابهما وأنساب أبويهما.

I loved you from the start,

There’s still that same old feeling,

Concealed here in my heart

لم يستطع ماركو يومًا أن يتنبّأ بما قد تفعله بيتا. لطالما أحبّ جنونها. أمسك يديها وسار بأصبعه على خطّ العمر، ثم لثم باطن كفّها بشفتيه. شعرت بيتا أنّ أصابع ماركو لا تلمسها، بل تسير على الشرخ العميق في علاقتهما، كأنّه روح أثيريّة تمسها فتصيبها بالبرود.

سمعا جلبة على السلالم. كانت للعابر المبتلّ الذي لم يستسلم للحمّام المباغت، فصعد لينتقم. جرى ماركو وبيتا باتّجاه سلالم الخدم، تاركين خلفهما سيناترا وغناءه يشي بهما...

I tried making you love me,

And you couldn't decide,

But I'll never regret that I tried,

And tried and tried

وجد ماركو نفسه في الشارع، مرتديًا بيجامة النوم ولا يستطيع الصعود إلى شقّته. سارا ـــــ هو وبيتا ـــــ نحو شارع أبوقير، عابرَيْن إلى جوار تمثال الإسكندر الأكبر الرابض على حصانه في الميدان. كان ماركو عابسًا، مستاء من النظرات الضاحكة التي يطالعه بها المارّة. كتمت بيتا ضحكاتها وأشارت إلى التمثال وهي تخبره:

ـــــ شوف الإسكندر الأكبر، فارس عظيم، مع أنّه لابس تنّورة.

ضحك ماركو فأضافت:

ـــــ أنت على الأقلّ معاك بنطلونك.

جذبها ماركو فجأة من يديها نحو أوتوبيس النقل العامّ الأزرق. أكمل الأوتوبيس المسافة الصغيرة الباقية بشارع أبي قير، ثم انحرف في نهايته نحو شارع فؤاد الأوّل. نزل ماركو أمام مقهى سيليني ولم تتبعه بيتا. أشار لها أن تلحق به، لكنّها أرسلت له تحيّة فيما كان الأوتوبيس يكمل طريقه نحو ميدان القناصل بالمنشيّة.

نزلت وهي لا تعرف أين تقضي يومها.

١٥

تذكّرت بيتا أنّ عالية تعمل في تياترو البرنسيسة بشارع السبع بنات. سارت بين البارات المغلقة وتلك التي تصل الليل بالنهار. كانت عيون الجالسين بها غائمة من آثار قلّة النوم والخمر الرخيص. بحثت عن مطابع الطوخي التي تقع إلى جوار التياترو. لم تفتّش طويلاً إذ رأت صورة بالحجم الطبيعي لتحيّة كاريوكا، مكتوبًا في أسفلها «استعراض ليالي الأندلس».

وجدت بيتا باب دخول الموظّفين مفتوحًا. سمعت عزفًا غير متقن لقانون وعود. كان الغناء المرافق لهما أقرب إلى النشاز. وجدت على المسرح فتًى يدرّب سيّدات بدينات على الرقص... الوسط كمانجة يا بنات... عرفته بيتا. كان سوكا مدرّب الرقص الذي حكت لها عنه عالية.

جلست بيتا في أحد الصفوف الأماميّة في المسرح الخاوي. خرجت من الكواليس سيّدة عجوز وهي تفرك عن عينيها آثار النوم. جلست خلف البار، ثم أمرت إحدى السيّدات البدينات أن تجلب لها السبرتاية لإعداد القهوة. جاء صوت أذان الظهر من المسجد القريب، فأمرتهم العجوز بإيقاف العزف حتى انتهاء الأذان. جاءت الراقصة البدينة تتبختر على مهل وهي تمضغ اللبان وتصنع منه فقاعات كبيرة، أشعلت السبرتاية وهي تختلس النظرات إلى بيتا.

نظرت العجوز إلى بيتا وسألتها: إنت مين يا حلوة؟

أخبرتها بيتا أنّها صديقة عالية الأرتيست وقد جاءت تبحث عنها.

ـــــ زمانها جايه... بترقصي يا خواجاية؟

هزّت بيتا رأسها نافية.

ـــــ بس أكيد بتشربي قهوة. تعالي جنبي هنا عقبال عالية ما تيجي...

اعتادت بيتا سماع حكايات ألف ليلة وليلة من سيلڤانا. لذا، عندما صادقت عالية في مسجد المرسي أبو العبّاس، تخيّلت التياترو الذي تعمل فيه ممتلئًا بالراقصات كأنّه مخدع أمير من أمراء ألف ليلة وليلة. جلست بيتا تشرب البنّ المطحون بحبّ الهال وتشاهد سوكا وهو يدرّب الراقصات على تمارين ليونة الأوراك. ارتدت الراقصات جلابيبهنّ المنزليّة بما عليها من بقع طعام لم يُجدن غسلها، كانت شعورهنّ هائشة، وآثار النوم ما زلت عالقة في عيونهنّ. كان سوكا مستاء، يشكو كسلهنّ الصباحي للعجوز ويناديها برنسيسة...

ـــــ يرضيكي كده يا برنسيسه.

ـــــ شدّ ودانهم يا سوكا زيّ ما يعجبك.

ـــــ وإنت الصادقة يا أبلتي، حاشدّ وسطهم.

ميّزت بيتا خطوات كعب عالية التي رنّت في أنحاء المسرح، ثم صوتها العالي وهي تسأل: مين دول يا برنسيسة؟ تعجّبت عالية من جيش الراقصات البدينات. لكن عجبها ازداد عندما رأت بيتا جالسة إلى جوار البرنسيسة. احتضنتها وهي تقول: عرفتي توصلي لوحدك؟ فأجابتها بيتا: الستّ تحيّة دلّتني.

وعلى ذكر السيّدة تحيّة، سألت عنها عالية فأخبرتها البرنسيسة أنّ الراقصة الشهيرة أجّلت موعد البروڤة ساعتين، فرأت أن تستعين براقصات الشمعدان حتى تعيد أمجاد الزمن الجميل. ضحكت عالية وهي تتأبّط ذراع بيتا: قصدك الزمن التخين!

أخذت عالية بيتا لتريها كواليس التياترو كما وعدتها سابقًا. أرتها مخزن الملابس فشاهدت أزياء الحرب والجواري. ثم مرّتا على غرف الكومبارس حيث وجدتا الفتيات أمام مرآة التجميل ينزعن بعض شعيرات من الحواجب ويسلّين أوقاتهنّ بالنميمة، بانتظار قدوم النجمة لبدء البروڤات.

على باب غرفة تحيّة كاريوكا، وضعت نجمة تميّز غرفتها عن باقي الغرف. من بعيد، سمعتا صوتي البرنسيسة وسوكا المشغولين بتليين مفاصل الراقصات المتيّبسة. نظرت عالية يمينًا ويسارًا لتتأكّد من خلوّ الممرّ، أخرجت من شعرها دبّوسًا وغمزت بعينها لبيتا وقالت: حورّيكي حاجة حلوة. توتّرت بيتا وظلّت تتلفّت من حولها خائفة وهي تقوم بالمراقبة عندما كانت يد عالية الخفيفة تفتح القفل بمهارة. أخبرتها عالية أنّ هذه حيلة آخر الشهر، فعندما تتأخّر عن موعد دفع أجرة البانسيون وتغلقه السيّدة ماري اليونانيّة، تتسلّل هي إلى حجرتها مساء، مستعينة بدبّوس شعر.

وجدت بيتا نفسها في غرفة معتمة، بستائر ثقيلة تليق بأجواء ليليّة. أضاءت عالية الحجرة وأشارت
إلى بدلة رقص تحيّة كاريوكا المعلّقة على المشجب. كانت فضّيّة لامعة مثبّت عليها حزام وسط أحمر ومرصّعة بجواهر مزيّفة، زمرّد وياقوت. دارت عالية حول بدلة الرقص ولمستها بوجل. اقترحت عليها بيتا أن ترتديها، لكنّها رفضت واكتفت باحتضانها والنظر في المرآة.

رأت بيتا في عينيْ عالية لمعة غيرة وهي تحكي عن الخيّاط الإيطالي الذي صـمّمها للسـتّ تحيّة خصّـيصًـا. أعادتها إلى مكانها، ثم أخذت من فوق المنضدة قلم كحل ودسّته في حقيبتها وهي تقول: حاجة من أثرها عشان أبقى مشهورة زيّها.

اعتلت البرنسيسـة المسـرح لتعلّم البدينات بنفسـها فنّ الارتجاج المتواصـل. أخبرتها عالية أنّها سـتذهب إلى بهجة الخيّاطة لتجرّب الفساتين الجديدة. كانت البرنسيسة مستغرقة في تذكّر رقصـة قديمة أفصـحت عن أنّها كانت راقصـة ماهرة في شبابها. راكم الوقت على أفخاذها الكيلوجرامات، لكنّها ما زالت تحتفظ بدلعها القديم...

ـــــ ما تتأخّريش يا عالية، ناكفي أمّ رُقَيّة في السعر، ده شقى عمري يا ولاد الكلب...

١٦

غالبًا ما تفتح عالية لبيتا طرقًا جديدة، لذا فقد توقّعت أن تذهب بها إلى مكان مختلف لا تعرفه. لكنّها طلبت من سـائق الحنطور أن يأخذهما إلى شارع فؤاد، وأخبرتها أنّه يسهل الوصـول إلى بيت الحجّام عبر شارعهم، شارع الأجانب كما أسمته، بدلاً من الدوران حول المنشيّة والدخول من شارع سيدي المتولّي.

أوقفت عالية الحنطور بالقرب من مقهى سـيليني. كان الجنود الإنجليز متناثرين على المقاعد الخارجيّة للمقاهي، بينما كانت السـيّدة الفرنسـيّة التي تعمل في محلّ مجوهرات زيف فرير للمجوهرات، تضـبط الجرامافون لكي يحلّق غناء إديث بياف بلدغته المحبّبة عاليًا. دفعت عالية أجرة السـائق وبيتا واقفة تراقب مقهاهم من بعيد كمن يتلصّـص عليه. خافت أن يراها ماركو أو أبوها، فتبدأ المواجهة التي تهرب منها منذ الصباح.

أنقذتها عالية وعبرت بها إلى شـارع جانبي بجوار المقهى. وصـلتا إلى حارة الصـالحي. كانت الكهرباء تئزّ في أسـلاك الترام وبائع الفول يرنّ جرسًا هاتفًا... اللوز يا أكيله... وباعة الفراولة ينادون على فاكهة الجنّة.

خرجتا من الحارة الواسعة نسبيًّا إلى شارع منزل الحجّام. تعجّبت بيتا من وجود بيت مهيب كهذا وسط حيّ شعبي. كان باب المنزل مفتوحًا كعادته، لا تنقطع منه ثرثرة السيّدات.

دخلت عالية وتبعتها بيتا التي دارت بعينيها تتأمّل الصـالة المشمسة. كان فيها أربع سيّدات يتحدّثن بصـخب وحماس، وإلى جوارهنّ رجل يسـدّ أذنيه بقطع قطن صـغيرة، بينما غرق آخر في صـفحات جريدة الأهرام يتابع تحرّكات هتلر. رأت بيتا أسـفل أخبار هتلر إعلانين من الحجم المتوسّط: أحدهما لسعد زغلول يعلن فيه عن الصـابون النابلسـي زعيم الصـابون، والآخر لأمّ كلثوم تعلن فيه عن عطر جديد يُسمّى رائحة صفيّة زغلول، زعيمة الروائح، وكلاهما مذيّلاً بتوقيع الشبراويشي.

كانت رُقَيّة تجيء وتروح، حاملة برطمانات العسل. حين رأت عالية وبيتا، سكنت في مكانها تنظر إلى بيتا. لم تكن الأجنبيّة الأولى التي تزور منزل الحجّام، ولم تكن أجملهنّ، لكن زرقة عينيها وبشـرتها القمحيّة كانتا تعطيان انطباعًا لامعًا لمن يراها للمرّة الأولى. ظنّت رُقَيّة أنّ بيتا تشبه الممثّلة كارول لومبرد. كانت رُقَيّة قد شـاهدت منذ أسبوع فيلمها «أكون أو لا أكون»، الذي تسـخر فيه من هتلر.

سألت رُقَيّة عالية: عايزة أمّي ولا أبويا؟

أخبرتها عالية أنّها تريد تجربة الفساتين الجديدة، فسارت رُقَيّة وتبعتها الفتاتان. كان الممرّ الذي يفصل بين الصـالة وحجرات البيت الداخليّة ضيّقًا، به حجرتان على اليسار، وواحدة على اليمين، وينتهي بحجرة بهجة الواسعة.

دخلت الفتيات. وجدن بهجة جالسة خلف ماكينة الخياطة، تضغط على دوّاستها بقدمها وقد ارتدت جلبابًا منزليًّا أسود يشبه جلباب سيلڤانا في الحلم، وتناثرت من حولها قصاصات القماش الملوّنة. كانت تخيط فستانًا أحمر بنقط سوداء على الطراز الإسباني، فبدت لبيتا كنقطة سوداء في بحر من الألوان.

جلســت عالية وبيتا على أريكة إلى جوارها. أوقفت بهجة ماكينتها لثوان، نظرت إليهما بلامبالاة، ثم عادت لماكينتها. أنهت بعض الغرزات وأعطت عالية الفستان الإسباني، فأخذته بصمت واختفت وراء برافان خشبيّ.

لم تعد رُقَيّة إلى عملها مع أبيها. أحضــرت لهما أكواب الكركديه البارد. شــكرتها بيتا، بينما نهرتها بهجة وهي تقترب منها بالكوب الأحمر، ومن أثواب القماش المبعثرة على الأرض...

ـــــ أبعدي المصيبة دي عن القماش!

شعرت رُقَيّة بالامتعاض من أمّها التي نهرتها أمام بيتا، لكن فضولها لمعرفة الغريبة أبقاها في الحجرة.

سألتها: إنت أرتيست زي عالية؟

فأجابت بيتا: لا، أنا بساعد بابا في الكافيه... سيليني، قريب من بيتكم جدًّا.

قالت بهجة: قهوجيّة يعني؟

بيتا: لحدّ دلوقتي... قريب حنحوّله لسينما، الافتتاح يوم الاثنين الجاي.

خرجت عالية من خلف البرافان وهي تدقّ الأرض بكعبيها وتدور حول نفسها كراقصة إسبانيّة...

ـــــ هولا، إسبانيولي!

أتقنت بهجة خياطة القماش الأحمر فجعلت عالية تبدو راقصة إسبانيّة محترفة. عرفت بهجة أنّ ذلك الحماس في عينيّ رُقَيّة لا يعود لجمال الفستان، وإنّما لرغبتها في حضور عرض الافتتاح في سينما بيتا الجديدة.

ســألت بهجة بيتا: أفلامكم مؤدّبة يا خواجاية؟ فأجابت بيتا أنّها ســتكون عائليّة خفيفة الظلّ. فتابعت: ابقي خدي بالك على رُقَيّة لما تشوفيها...

١٧

عادت بيتا إلى المنزل بعد المغرب، متسلّلة عبر سلّم الخدم، حتى لا ترى أحدًا. كان الجميع في الصــالة يناقشــون ترتيبات الافتتاح المرتقب. بعدما أغلقت حجرتها، سمعت سارينة إنذار الغارة. كانوا ينادون: طفّوا النور!

لم تخرج من حجرتها، وللمرّة الأولى شعرت بامتنانها للحرب. نزلوا جميعًا إلى المخبأ، فصــارت وحيدة كما تريد. أحضرت شمعة وتفّاحة من المطبخ، وبحثت في دولابها عن قماشة من القطيفة الحمراء. تذكّرتها وهي في منزل بهجة. كانت سيلڤانا قد اشترتها قبل رحيلها ووعدتها أنّها ســتخيّطها لها في عيد الميلاد. ســافرت أمّها وظلّت القماشــة قابعة في مكانها تنتظر الوفاء بالوعد. كان ملمس القطيفة ناعمًا على يديها، احتضــنتها، ما زالت محتفظة بعطر ســيلڤانا. لم تعد القماشــة تكفي لخياطة فســتان، ســتطلب من بهجة أن تجعلها بلوزة.

أخرجت بيتا خطابات أمّها وجلست تقرأها وصوت الطائرات الألمانيّة المحلّقة يهدر في أذنيها...

عزيزي بيلوتشي...

لا أعرف إن كنت تقرأ خطاباتي صباحًا أم مساء، لكن على كلّ حال، مساء الخير. جابي الصغير نائم إلى جواري. أستمع إلى أنفاسه الهادئة وأتأمّل جبهته الدقيقة التي تشبه جبهة أبيه. قبل أن أراه، لم أكن أدرك أنّ هناك شيئًا على الأرض بهذا الجمال.

أعرف أنّني لم أكتب لك منذ حفل زفافي، لكنّه كان عامًا حافلاً. أشعر أنّني أعيش في رواية، وأتساءل دومًا متى سأفيق من هذا الحلم، وأعود إلى الواقع؟

هذا الصباح، ذهبت في زيارة لعائلة ألبير. كنت أعدّ فطائر الجبنة بالريحان مع والدته، وأنا أصبّ زيت الزيتون على الدقيق، أعطتني فاطمة الخادمة منديلاً لأجفّف دموعي. بكيت على غفلة ودون أن أدري. أخبرتني أمّ ألبير أنّها أعراض طبيعيّة لما بعد الولادة. هي نفسها ظلّت تضحك بهستيريّة لشهور بعد مولد ألبير.

لا أفهم ما الطبيعي في البكاء أو الضحك الهستيري. لكنّني كنت أفكّر بأمّي، وأستعيد مقاديرها لخبز الفطائر.

أعرف أنّ كلّ ما لفت انتباهك في الحكاية هي فاطمة الخادمة. نعم يا صديقي، لقد صار لدى أختك خدم ويعاملونني كأميرة، في المنزل والأسواق. أقربهم إلى قلبي فاطمة التي تحكي لي عن البوصيلي، قريتها البعيدة في محافظة البحيرة. عندما تتحدّث عن رائحة الصباح بين الحقول، عن الألبان الطازجة واحتفالاتهم الدينيّة، أتذكّر كالابريا وأشعر أنّنا متشابهتان. كلّ ما تحتاجه هي ربّما هو أن يتزوّجها ثريٌّ من ميلانو، لتعامَل كأميرة.

رغم أنّ فاطمة تستجيب لكلّ أوامري، لكنّني أحبّ القيام بأموري بنفسي. أذهب إلى سوق شبرا، وآخذ حنطورًا إلى وكالة الغوري لشراء البهارات. لقد صرت أحبّ رائحتها بجنون. أطهو طعامي بيدي وأخبز فطائري. فقط عندما تخرج الأمور عن السيطرة، تتدخّل فاطمة، فتشعل الوابور أو تجلب الثلج وتمنحني منديلاً لأجفّف دموعي.

لا أعرف لماذا كلّما أرسلت إليك بخطاب، أكتب عن المناديل وإفرازاتي الأنفيّة؟ هل يمكن أن يكون الأمر عقابًا سماويًّا على حيلتنا القديمة، عندما كنّا نرشّ الفلفل الأسود على ورود إيلينا التي توزّعها مع ابتسامة، على الخارجين من قدّاس الأحد؟ كان الجميع لا يتوقّف عن العطس وعن لوم إيلينا، ونحن لا نتوقّف عن الضحك.

لماذا توقّفنا الآن عن الضحك يا قصيري؟

أتمنّى أن تزورني قريبًا، لنحتسي شاي العصر سويًّا أمام الأهرامات. إنّها رحلة تقليديّة هنا. ذهبت أنا وألبير وجابي. كانت الصحراء مهيبة من حولنا. مددت ساقيّ على رمالها الدافئة، وأبو الهول راقبني وأنا أقطّع الفطائر الساخنة وأبرّدها بأنفاسي لألبير.

أخبرني ألبير أنّه لولا حبّي، لكان الآن في طريقه إلى تونس أو باريس أو بومباي، لكنّني صرت أمثّل له العالم بأسره. الغريب أنّني أيضًا أمام هذا البراح، راودني ذلك الشعور السابق، عندما كنت بالسفينة، وتلك الرغبة في رؤية العالم بأسره، واليقين من القدرة على ذلك.

الآن أنا مثل ألبير، أحبّ السفر، لكنّني لا أستطيع، خاصّة وأنّ جابي يستيقظ كلّ ساعتين راغبًا في طعامه.

جابي يناديني، ويسلّم عليك. في الحقيقة، إلى الآن، كلّ حديثه بكاء. يبكي جوعًا وعطشًا، وربّما فرحًا دون أن أدري.

فإليك صراخه هذا تحيّة... مع خالص حنيني.

أختك سيلفانا...

لورينزو سابقا، ألبيرتيني حاليًّا.

شبرا

٥ ــ ٩ ــ ١٩٢١

انتهت الغارة ولم تلحظ بيتا صـعود أفراد عائلتها وإضـاءتهم للصـالة. كانت ما تزال غارقة في كلمات أمّها على ضـوء الشـمعة الخافتة...

بيلوتشي، هل تظنّ أنّني كنت أرنبة في عالم آخر؟

كيف حالك يا أخي؟ أنا سعيدة حقًّا بسفرك إلى باريس، استمتع بأقصى طاقتك وأرسل لي صورك في مدينة النور.

أنا حامل يا أخي، وجابي ما زال لم يتعلّم المشي بعد. أمّا ألبير، فترك العمل بالأوبرا الخديويّة وهجر كمانه أيضًا. انتقلنا للعيش في الإسكندريّة وأصبحنا ندير مقهى إيطاليًّا أنيقًا، يدعى سيليني ويعني قمرًا باليونانيّة. ولذلك حكاية أخرى لا مجال لذكرها هنا، فكما ترى لديّ الكثير ليشغلني.

في الصيف الماضي، جئنا مع أعضاء الأوركسترا التي تنقل أعمالها صيفًا إلى الإسكندريّة، حيث يقضي الملك إجازته في قصر المنتزه. كان صيفًا رائعًا مليئًا بالبحر والبحر ثم البحر. ومع قدوم الخريف، كان علينا العودة إلى شبرا، وكنّا سنستعدّ للسفر مع الأوركسترا إلى الآستانة لتقدّم عزفها، لولا أنّ بعض التغييرات الطارئة كانت قد ظهرت على ألبير. أصبح سريع الغضب، يتهرّب من بروفات الأوركسترا. كنت أسمعه مساء وهو يعزف، فتخرج ألحانه متقطّعة ومرتعشة. لم يكن يخطئ في لحن، لكن عزفه كان بطيئًا ومتردّدًا.

عانيت شهورًا قبل أن أعرف ما به. كان رافضًا العودة إلى شبرا، رافضًا الحديث معي، يقضي النهار بطوله خارج البانسيون، ويتركني بمفردي مع جابي. بكيت حينها كما لم أبكِ من قبل، وظننت أنّني سأسكب كلّ دموعي وأموت من الجفاف.

وجدني ليلة في حجرتي أعاني من ألم شديد في المعدة، أخذني إلى طبيب إنجليزي. وبعد الفحص والتحاليل، عرفت أنّني حامل للمرّة الثانية. ونحن خارجان من العيادة، سألني للمرّة الأولى منذ أشهر: كيف حالك؟ تأبّطت ذراعه، فقبض على يدي بكفّ مرتعشة وأخبرني أنّه مريض. قال طبيبه إنّ مرضه يسمّى الشلل الرعاش المبكر... Juvenile Parkinsonis... أقنعت ألبير أنّه يصلح اسمًا لصديق جديد. ألا تعتقد ذلك أيضًا؟ بعد قدوم صديقنا باركين هذا، قرّرنا البقاء في الإسكندريّة التي أحبّها جدًّا وأظنّها تشبه ميلانو...

العمل في المقهى يلائم ألبير تمامًا، ينشغل بالحسابات وإعطاء الأوامر للعاملين، وهو يشرب القهوة مع مالك سيليني القديم السيد فنجلي اليوناني.

أمّا أنا، فأتمنّى أن ألد سريعًا ليحصل جابي على أخ يمكنه اللعب معه، فينشغلان بعيدًا عنّي وأجد الوقت الكافي لممارسة هوايتي المفضّلة، السباحة والسباحة ثم السباحة. لقد أحببت الجملة فقط، لذا أكرّرها عليك. في الحقيقة، لديّ طموح كبير في توسيع نشاط سيليني، سأجعل منه مطعمًا وبارًا وأقيم فيه حفلات رقص تعيد لي بهاء الأيّام التي قضيتها في قصر السيّدة ماري.

هنا، عرفت فرنسيّات وإيطاليّات وإنجليزيّات وسويسريّات وبالطبع يونانيّات، يأتين لشرب القهوة وأكل الإكلير اللطيف الذي أخبزه، ويعلّمنني كلمات بلغاتهنّ. كأنّ الربّ يعوّضني عن ضياع رحلة الآستانة ويمنحني عيّنات من البلدان التي أحببت زيارتها.

أتمنّى لك يا بيلوتشي في فرنسا... Bon voyage

وأنت في مدينة النور، أرجو صورك وصلواتك، إن كنت ما زلت تصلّي...

أختك المحبّة

سيلفانا ألبيرتيني جوتاري

الإسكندريّة

١٩ ــ ٤ ــ ١٩٢٢

١٨

عرفت رُقَيّة أنّها لا تمتلك القدرة على الخداع. فبهجة علمت بأمر ذهابها إلى السينما، والأهمّ أنّها لم تمنعها لا بل هي تساعدها لتشاهد الفيلم الجديد في مقهى بيتا. فكّرت رُقَيّة، كيف كشفت أمّها السرّ. لا بدّ وأن تكون الواشية سامية.

لم تدبّر رُقَيّة حيلة للخروج هذه المرّة. تولّت بهجة الأمر وأخبرت زوجها أنّ رُقَيّة ذاهبة إلى سوق الزنقة في المنشيّة، لتبتاع لها الخرز. كان لدى الحجّام جلستان للحجّامة ويحتاج مساعدة ابنته، فرفض خروجها، إلاّ أنّ رفضه كان واهنًا لأنّ آلام الرأس التي لم تفارقه مؤخّرًا، جعلته متقلّب المزاج، يغضب أحيانًا بصخب يهزّ جدران منزلهم، وأحيانًا بضعف يهزّ قلوبهم.

كانت صالة منزلهم خالية من الغرباء يملأها صخب عبد الله وهو يعلّم القرد لعبة كيف يدقّ مثله على الطبلة. كانت رقيّة قد انتهت من جمع الملاءات النظيفة وترتيبها على طاولة الحجّامة الزجاجيّة، وإلى جوارها الكؤوس والمشارط.

جلس الحجّام وبهجة على الأريكة يحتسيان الشاي بالنعناع. بدا الحجّام ساكنًا ومستسلمًا لدفء وقت العصر. اقترحت عليه بهجة أن تقوم بالعمل بدلاً من رُقَيّة، فهزّ رأسه موافقًا وهو مغمض العينين، والشمس تنير وجهه المرهق.

لم يستغرق الطريق من بيتها إلى مقهى سيليني أكثر من أربع دقائق. وجدت رُقَيّة بيتا واقفة أمام المقهى توزّع على العابرين إعلانات عن السينما الجديدة، بينما جلس ألبيرتيني إلى جوارها يبدّل أسطوانات الجرامافون. كان المارّة يقفون ليستمعوا إلى الأغنيات المتنوّعة، وقد استجاب بعضهم لدعاية بيتا ودخل ليشاهد الفيلم. كان زاهر يقطع التذاكر، وفنجلي يرشدهم إلى مقاعدهم.

رحّبت بيتا برقيّة وأجلستها على مقعد قريب من الشاشة كما أوصتها بهجة. كان المقهى صاخبًا وممتلئًا بأناس يسلّمون على بعضهم بعضًا ويثرثرون. شعرت رُقَيّة أنّها غريبة بين عائلة كبيرة. أخبرتها بيتا أنّ معظم الحاضرين أصدقاء لأخيها جابي وصاحبه زاهر من معهد دون بوسكو وحواري العطّارين، والباقون هم من أقرباء فنجلي اليونانيين وأصدقائهم من النادي الإيطالي.

أعطى جابي لأبيه أسطوانة جديدة ليشغّلها. وقفت جماعة من خمس فتيات يسألنه عن الأفلام وعن السينما الجديدة. لم تكن أيّ منهنّ مهتمّة بالأفلام أو بالسينمات الجديدة، وإنّما بعيون جابي الواسعة وشعره الناعم. وقفن يتنهّدن لمعلوماته الغزيرة وحماسه للعمل في المجال السينمائي. بحث عن بيتا لكي تعطيهنّ الإعلان وترشدهنّ للمقاعد، كانت داخل المقهى تتحدّث إلى رُقَيّة...

ـــــ دول جايين عشان التذكرة رخيصة... قالت بيتا.

ضحكت رُقَيّة، بينما كان جابي يتقدّم منهما ببطء وهو يقول لبيتا:

ـــــ خلّيتي الجمهور يضحك علينا قبل ما الفيلم يبدأ.

منّت رُقَيّة نفسها بمشاهدة الممثّلين البرّاقين واللامعين على شاشة السينما، فإذا بها تجدهم خارجها يقفون أمامها وجهًا لوجه. فكما رأت أنّ بيتا تشبه كارول لومبرد، وجدت أنّ جابي يشبه عشيقها، الجندي الشابّ ذا العضلات المفتولة، وأنّ له ابتسامة طفوليّة وخاطفة كابتسامة الجندي العاشق. حتى الاختلاف الطفيف بينهما اعتبرته لصالح جابي، إنّها لا تحبّ الشقر بل أصحاب الشعر الأسود الغزير.

كان جابي مغناطيس نظرات. فكلّما وقع نظر إحداهنّ عليه، انجذبت تَوًّا. أمّا رُقَيّة، فكان لديها حاجب يرتفع بدهشـــة عندما تباغتها المفاجآت، وهو قد ظلّ معلّقًا في الهواء، كقلبها، عندما رأت جابي.

عرّفتهما بيتا ببعضـــهما بعضًـــا، وأخبرت جابي أنّها ابنة الخيّاطة الماهرة التي حكت له عنها. ســـأل جابي رُقَيّة: أوّل مرّة تروحي سينما؟ فهزّت رأسها نفيًا، وساءها أن يكون قد ظنّها فتاة منزليّة غير مجرّبة. قالت متحدّية: أنا بشوف فيلم كلّ أسبوع، أنتو اللي أوّل مرّة تعرضوا أفلام هنا. أجابها جابي ضاحكًا: الجمهور بينتقدنا من أوّل يوم... مين بيعجبك من الممثّلين؟

ـــــ نجيب الريحاني...

ـــــ كنت فاكرك حتقولي أنور وجدي، ولاّ حسين صدقي.

ـــــ بحبّهم، بسّ بحبّ الريحاني أكتر، هو يتكلّم من هنا، ألاقي نفسي بأضحك، وأزعل وأرجع أضحك تاني...

كان جابي يســـمعها وهو ينقل نظراته بين عينيها وشـــفتيها. كانت لدى رُقَيّة تلك الطريقة التي تلفظ بها كلمة الريحاني، حيث تقول الحاء بتنهيدة. وقد لاحظت تلك الجرأة التي جعلت نظراته صـريحة وقريبة. وتّرها ذلك القرب منه، فتشـاغلت بالنظر إلى الملصـق الإعلاني الذي أخذته من بيتا، كان يعلن عن افتتاح سينما سيليني الجديدة وعرض فيلم كازابلانكا...

قرأت رُقَيّة بصوت عال: قصّة حبّ مستحيلة...

حروب تفرّق بين القلوب...

البطلة الأميركيّة الحسناء، إنجريد برجمان، ستسحركم بجمالها...

امتعضت رُقَيّة قائلة: بس هي مش أميركانيّة، دي من السويد وسافرت تشتغل في هوليوود...

قاطعها جابي: يا سلام!

ـــــ طبعًا، واللي سفّرها هناك، المنتج الأميركاني سيلزنك. تفرّج على أفلامها في السويد وعجبته، فجابها تشتغل معاه.

ـــــ وأنتي كنتي قاعدة معاهم ساعتها؟

ـــــ لا طبعًا، قريته في المقال، اللي اتنشر عنها في «جورنال دي إيجيبت».

نظر إليها جابي، متعجّبًا وغير مصدّق.

ـــــ بتقري فرنساوي؟!

ـــــ لا مش أنا، مدام جورجيت. ماما بتخيّط لها فساتين، ولمّا شفت صورة إنجريد على الجورنال، اشتريته وطلبت منها تترجمه... وعرفت منه إنّ إنجريد ملاك مصنوع في السويد، مش في أميركا.

شعر جابي أنّها تغيظه بمعرفتها وتعايرهم بخطأهم. أراد أن يبهرها، فتعرف أنّهم المحترفون هنا. قال لها..

ـــــ أورّيكي حاجة، متأكّد أنّ عمرك ما شفتيها؟

لم ينتظر إجابتها، سار أمامها وهو يشير لها أن تتبعه. نظرت إلى بيتا فوجدتها تقف بعيدًا، مشغولة ببيع التفّاح المغطّى بالكراميل. لاحظت رُقَيّة فتيات يراقبنها وهي تتحدّث إلى جابي، ثم وهي تتبعه بصمت.

انحرفا إلى ممرّ جانبي صغير حجب عنهما صخب المقهى. في نهايته، رأت بيتا ستارًا سميكًا، تشوّقت لمعرفة ما يخفيه. عندما أزاحه جابي، وجدت بابًا مغلقًا، في الداخل كانت الحجرة معتمة، وهناك ضوء قادم من العليّة. صعدا سلّمًا خشبيًّا وفي الأعلى، وجدا بيلوتشي، والأهمّ وجدا آلة عرض. هذه آلة عرض إيرنيمان، ألمانيّة الصنع، لمحترفي السحر، قال جابي، مستحوذًا تمامًا على رُقَيّة. كان بيلوتشي يضع زيتًا للآلة ويمسحها برفق، وقد ساءه دخول رُقَيّة عليه إذ كان يرى أنّ غرفة العرض هي غرفة صنع السحر، لذا وجب أن تبقى في الأعلى، معزولة عن المشاهدين. إلاّ أنّه التزم الصمت ولم يقل شيئًا أمام انبهارها وحاجبيها المرفوعين، فترك جابي يريها بكرات الفيلم المغلّفة بعناية.

مباشرة من هوليوود إلى شاشتنا سيّدتي، قال جابي، فهزّت رُقَيّة رأسها مستسلمة. نظر بيلوتشي من الكوّة العلويّة إلى الجمع الذي أوشك على الاكتمال، ثم أعطى إشارة البدء إلى فنجلي وزاهر، فأغلقا باب المقهى وأسدلا الستائر على نوافذها. دقّ فنجلي ثلاث مرّات، وهو تقليد دقّات البداية في المسرح. وكي يجلس الجميع، وضع ألبيرتيني لحنًا هو جزء من أوبرا عايدة لفيردي. أدار بيلوتشي آلة العرض، فدارت البكرات ومسّ السحر جنبات المقهى.

١٩

دام عرض الفيلم ساعة وثلث الساعة. لم يرق لرقيّة أيّ فيلم من قبل مثل هذا. كانت تشاهده من الكوّة العلويّة، وإلى جوارها جابي وبيلوتشي. وعندما دبّت الحياة في شاشة العرض، صارا شبحين فغادرتهما وسافرت إلى كازابلانكا. تحوّل مقهى سيليني، إلى مقهى ريكز في الدار البيضاء، وتخيّلت نفسها إلزا بطلة الفيلم، وهي تطلب من عازف البيانو الأسمر، سام، أن يغنّي لها أغنيتها القديمة...

— play it Sam, play… As time goes by, I›ll hum it for you.

رجعت رُقَيّة إلى منزلها بجناحين من السعادة. كان والداها قد أنهيا جلستي الحجّامة وعادا إلى أريكتهما في الصالة، حيث تركتهما، ووجدتهما يسترجعان الذكريات الأولى لزواجهما.

كان زواج الشيخ حسين من بهجة، بمثابة طوق نجاة لها، هي اليتيمة التي عاشت في منزل عمّتها وكان أكبرَ أحلامها زواجٌ يكفل لها حجرتين وصالة. تزوّجها حسين وأخذها للعيش معه في المدينة الكبيرة، وأصبحت من أهل العطّارين. كانت حينها مثل رُقَيّة الآن، صغيرة وتحلم، والشيخ حسين الذي كان يكبرها بخمسة عشر عامًا، أحبّها وصار بيتًا لها. كان لدى الحجّام حلم أن يكون له ابن يورثه علم أجداده، ومع إتمامه عامه الخمسين، كان قد فقد كلّ أمل في تحقيق حلمه هذا، إذ جاء طفله الأوّل فتاة، والثاني ولدًا مريضًا.

كانت رُقَيّة تعدّ العشاء ومشاهد كازابلانكا مسيطرة على عقلها وحواسّها. قرّرت أن تطهو البصارة التي يحبّها أبوها، وهي تفكّر أنّ إيڤانا، الحسناء اللعوب، التي بدّلت الأحبّة طوال الفيلم، كانت جميلة فعلاً، وحتى ربّما أجمل من إلزا نفسها. وضعت الفول النابت ليغلي في الماء، وقطّعت البصل والثوم، وكلّ ما كان يشغلها هو السحر الخاصّ الذي افتقدته إيڤانا وجعل من إلزا البطلة. غسلت فلفلاً كان لونه الأخضر يشبه لون قبّعات العجوزين الإيطاليين في السينما، اللذين خرجا في منتصف الفيلم اعتراضًا على سخرية الأميركان من الجندي الإيطالي.

وضعت رُقَيّة الأطباق على الطاولة، وأحضرت الخبز الطازج، وهي تتمتم ما قالته إلزا لريك في مشهد النهاية، والضباب يغلّفها:

— الوداع يا ريك، باركك الربّ.

نادت على والديها وأخيها وكانوا ينتظرون انتهاءها من البصارة اللذيذة التي داعبت رائحتها أنوفهم. جلسوا حول المائدة والبخار الساخن يرتفع من الآنية، معبقًا الصالة بدفء طيّب.

كانت الليلة تمرّ بهدوء، والحجّام أثنى على طعام ابنته رغم شهيّته الضعيفة. انتهزت رُقَيّة فرصة رضا أبيها عنها لتقترح عليه أن يذهب للفحص الطبّي في المستشفى الأميري، فربّما يجد لديهم علاجًا لآلام رأسه التي لا تنتهي. لم تفهم رُقَيّة سرّ غضب أبيها العارم

عليها حين اقترحت عليه ذلك، حتى صـرخ بها أنّ ذهابه هو الحجّام، إلى الطبيب، سـيقضـي نهائيًّا على سـمعته وعمله. فهل يذهب شيخ الحكماء إلى حكيم؟

استمعت بهجة إلى صـراخه بوجه رُقَيّة، وبقيت تُطعم عبد الله صـامتة. لقد شـعرت مؤخّرًا بأنّ زوجها مريض، يقضـي أوقاتًا طويلة وهو يحتسي المشروبات الساخنة، ثابتًا في مكانه كتمثال، مغمض العينين، أو يصنع اللبخات مغلفًا بها رأسه. أيضًا، تكرّرت زيارات الشيخ صِدّيق إليهم، وهو عندما يأتي، يقضي والحجّام وقتًا طويلاً في القبو، ويمنعان أيّ مخلوق من النزول إليهما.

تسمع بهجة صوت الشيخ صِدّيق وهو يقرأ القرآن والأدعية، فظنّت في البداية أنّهما يعملان على علاج جديد. لكنّ الأنفاق المستديرة السوداء حول عينيْ زوجها، شحوبه الدائم ونقصان وزنه في مدّة قصيرة، كلّها كانت دلائل قويّة على مرض ألمّ به. غير أنّ الحجّام، كعادته، نأى بنفسه بعيدًا عنهم، داخل بيته الزجاجي، لا يشتكي ولا يستمع إلى نصيحة أحد.

نظر الحجّام إلى بهجة، طالبًا منها العون، فلاحظت لأوّل مرّة كلّ تلك التجاعيد التي غزت وجهه وحوّلته عجوزًا. ودّت لو تربت على ظهره مطمئنة، وتمنّت لو يطاوعهما ويذهب مع رُقَيّة إلى طبيب يعرف علّته ويداويها. شـــعر الحجّام أن لا أحد يفهمه أو يعير انتباهًا لعلم أجداده الذي سيندثر، وفسّر التفاهم بين زوجته وابنته على أنّه مؤامرة ضدّه.

راح ثلاثتهم يتحدّثون بصـوت عال وفي آن واحد، وفي لحظات تحوّلت الصـالة الهادئة إلى سـوق صـاخب. أمّا عبد الله المنسـي، فأكمل طعامه بنفسـه صـانعًا قناعًا من البصـارة غطّى فمه وخدّيه. وعندما أنهى الطبق، أمسك بالملعقة وجعل يطرق على المنضـدة بشكل متواصل، صارخًا ومكرّرًا: الحمد الله... إلى أن انطلقت
سارينة الغارة وتعالت النداءات: طفوا النور، غاااااااارة.

حملت رُقَيّة عبد الله، وأغلق الحجّام المنزل، وأسـرعوا جميعًا إلى المخبأ، على ناصـية الحارة. كان الحجّام ما زال غاضـبًا، وظلام المخبأ وكتمته لم يكونا ليلائما روحه المتبرّمة، فقرّر عدم الدخول معهم، وأخبرهم أنّه سيقضي الليلة عند الشيخ صِدّيق. كانت الحارة بأكملها في المخبأ. الرجال يدخّنون والنســاء يثرثرن، كالعادة. مســحت بهجة وجه عبد الله، جلســت على مقعد خشــبي، وأخذته في حضنها لينام.

قامت رُقَيّة من مقعدها لتفسح مكانًا للسيّدة سكينة، جارتهم ووالدة سليم الكمسري. رمقت سكينة رُقَيّة بنظرات ظنّتها رُقَيّة عدائيّة، بينما كانت سكينة تخاف ساكني بيت الحجّام، ولولا أنّ هناك حربًا عالميّة دائرة بالخارج، لرفضت أن يجمعها بهم سقف واحد.

في الغارات السابقة، كان قلب رُقَيّة ينقبض لسماع صوت الطائرات. لكنّ الطائرات التي حلّقت فوق سماء كازابلانكا، جعلتها تبدو أليفة إلى درجة أنّها تمنّت لو تشاهد واحدة رؤية العين. وقفت رقيّة وتوجّهت إلى باب المخبأ، ثم أطلّت برأسها علّها ترى واحدة عن قرب. كانت السماء مظلمة إلاّ من بعض أضـواء متناثرة، صـاخبة وبعيدة. سـمعت رُقَيّة صـوتًا إلى جوارها يقول: غريبة أنّ أنوار جميلة زيّ دي، يبقى صوتها مخيف كده. التفتت إلى صاحب الصوت، وعبر الضوء الضعيف المنبعث من المخبأ، ميّزته، إنّه سليم الكمسري، وقف إلى جوارها يتأمّل السماء الصافية. سألها عن صحّة والدها وأخبرها أنّه رآه منذ بضعة أيّام، في صلاة العشاء، وبدا مرهقًا جدًّا. أجابت رقيّة أنّ أباها مريض بعض الشـيء وهو يرفض الاعتراف بذلك. فنصـحها أن تلجأ لأحد أصـدقاء أبيها علّه يقنعه بالذهاب إلى المستشفى الأميري، فهناك يساعدون الجميع. تعجّبت رُقَيّة من سليم الذي بدا كمن يقرأ أفكارها وشعرت بالأنس لوقوفه إلى جوارها. كانت ملامحه طيّبة يشوبها حزن، وقد ذكرّتها بحبيبها الدائم، نجيب الريحاني.

٢٠

كان عرض كازابلانكا ناجحًا استمتع به المشاهدون كثيرًا وشاركوا سام، المغنّي الأسمر، الغناء والطرق على الخشب عندما عزف أغنيته المرحة....

When you’re blue

لكن ذلك لم يجعل من سيليني السينما الحلم التي تمنّاها بيلوتشي وجابي. كان لها في خيالهما شاشة ضخمة يظهر عليها الممثّلون كآلهة الأوليمب، كبارًا ولامعين. تخيّلاها تسع ألف شخص يجلسون في بنوارت وعلى مقاعد مرتّبة في صفوف سفليّة وعلويّة.

أخذ جابي خاله ليعاين المنزل الذي يقع خلف مقهى سيليني. سارا عبر شارع متفرّع من شارع فؤاد، نحو حارة الصالحي، ومنها إلى شارع منزل الحجّام. تعجّب بيلوتشي أنّ شارعًا جانبيًّا صغيرًا كهذا، يفصل بين عالمين شديدي الاختلاف. فبعد أن ولجا حارة الصالحي، رأى بيلوتشي أنّ فساتين السيّدات العصريّة قد اختفت وحلّت مكانها الملاءات اللفّ السوداء، والبراقع التي غطّت وجوههنّ مؤطّرة عيونًا بالكحل. رأى الكثير من تلك العيون السوداء، وقد جعله ذلك سعيدًا.

جلس بيلوتشي وجابي في مقهى اللمّة الحلوة المقابل لمنزل الحجّام. طلبا شيشة وظلاّ يراقبان البيت المهيب. أعجب بيلوتشي بعمارته الحجريّة وبالنقوش المحفورة أسفل الشرفات وبنوافذه العالية الكبيرة، وقد رأى أنّ مساحته وموقعه ملائمان لتصوّراته عن السينما الحلم. فكّر في باب خلفي لها يصلها بالحارة ويدخل منه أهلها، خاصّة تلك الفتيات اللاتي مررن من أمامه وقد ارتدين فساتين ملوّنة وتركن ملاءتهنّ مرتخية حول الخصر في دلال. كنّ يرمقنه هو وجابي بدلال ويتبادلن الهمس والضحكات العالية.

بعد أن أنهيا الشيشة والمراقبة، جاء وقت العمل. كان باب الحجّام مفتوحًا. طرقاه، ثم نادى جابي بصوت مرتفع: صباح الخير. لم يخرج أحد للقائهما، فاحتارا ماذا عساهما يفعلان. رآهما صبيّ المكوجي وهو في طريقه إلى دخول المنزل المجاور، فقال مستغربًا: حدّ يخبّط على باب الحجّام؟ اطلع يا خواجة منك له... دي تكيّة من غير بوّاب!

صعدا إلى الطابق الثاني، وجدا في صالة المنزل ثلاث سيّدات ورجلاً ينتظرون دخولهم على الحجّام. كان الرجل يمسك مسبحة ويتمتم بصوت منخفض، اقترب منه جابي وهمس: عايزين نقابل الشيخ حسين... فنظر إليه الرجل ممتعضًا: بالدور يا سيّد، كلّه بالدور... لم يفهم بيلوتشي ما قاله الرجل، لكن ملامحه المستاءة لم تعجبه وخاف أن يكون هو الشيخ حسين، صاحب البيت.

كانت رُقَيّة في الشرفة تعتني بزرع أبيها، وعندما سمعت أصواتهم، خرجت فرآها جابي وأسرع يسلّم عليها ويسألها:

ـــــ إنت جايه تتعالجي عند الحجّام؟

ـــــ لا، وأنت؟ جي تتعالج؟

ـــــ لا برضه، أمّال إنت هنا ليه؟

ـــــ إنت اللي هنا ليه، ده بيتنا...

ـــــ إنت بنت الخيّاطة، ولاّ بنت الحجّام؟

شعر جابي بغبائه من نظرات التعجّب التي رمقته بها، ومن ضحكات السيّدات المستمعات إلى حوارهما وهنّ ينقلن النظرات بين رُقَيّة وجابي. وحده بيلوتشي لم يفهم ولم يضحك. وعندما سأل ابن أخته عن سبب ضحكهنّ، أخبره أنّهنّ يسخرن من شعره غير المرتّب. سرّح بيلوتشي شعره بأصابعه وهو ينظر بعداء نحو السيّدات اللواتي وقفن ودخلن إلى حجرة بهجة، وهنّ ما زلن يضحكن من الخواجة الغبي الذي لا يعرف أنّ رقيّة...

ـــــــ أجلست رُقَيّة جابي وبيلوتشي، وسارعت لإخبار جابي أنّ ذهابها إلى السينما سرّ لا يعرفه أبوها. طمأنها جابي وأخبرها أنّه يحتاج التحدّث مع أبيها في موضوع هامّ، لا علاقة لها به. كان الفضول يغلي في صدر رُقَيّة، كغليان الماء فوق الوابور وهي تعدّ الشاي لجابي وخاله. لم يكن لديها أدنى فكرة عمّا قد يريده إيطاليّان يديران سينما، من أبيها الحجّام.

لم ينتظر جابي وبيلوتشي طويلاً، فعندما أنهى الرجل المنتظر جلسته السريعة، خرج لهما الحجّام وجلسوا يحتسون الشاي. كان جابي صريحًا وواضحًا مع الحجّام، فأخبره مباشرة أنّه يريد شراء البيت. كان وجه الحجّام محنّطًا بالإرهاق، فلم يقرأ عليه جابي أيّ

ردّ فعل. شعرت رُقَيّة بالغبطة بكلّ أشكالها الممكنة، لقدوم الأفلام حتى بيتها، لكن خوفًا شديدًا جمّد قلبها عندما نظرت إلى وجه أبيها المرهق.

استمع الحجّام إلى عرض جابي بهدوء، وانتظر حتى أنهيا كلامهما ثم أخبرهما برفضه، قبل أن يتركهما جالسين ينهيان أكواب الشاي، وعاد مجدّدًا إلى حجرته البحريّة. غادر جابي وبيلوتشي وهما يرجوان رُقَيّة أن تقنع أباها. تنهّدت رقيّة بأسى وهي ترشدهما إلى الباب، فقد كانت تصدّق أنّه يمكن لنجيب الريحاني أن يخرج من الشاشة الكبيرة ليتغزّل بجمال عينيها، ولا تصدّق أن يوافق أبوها على بيع البيت.

دخلت رُقَيّة حجرة بهجة. كانت بمفردها فحكت لها عمّا حدث. كانت بهجة تستمع إلى رُقَيّة وتزيد من سرعة ماكينتها وهي تسحب ذيل الفستان الذي تنهيه بتثبيت مضاعف على الخيط. شكّت الإبرة إصبعها فنزف قطرات صغيرة. سألت رُقَيّة: بابا فين؟ فأجاب عبد الله الذي كان يلعب بالقرد الصغير: تحت. جلست رُقَيّة على الأرض إلى جواره وقالت له: مش قاعد معاه ليه يا بودي؟ فاحتضن عبد الله القرد وهدهده بين ذراعيه كما تحتضنه رُقَيّة وقت النوم، وأجابها: أصله نايم... هووه... نايم.

٢١

يمتلك بعض الناس ذاكرة صوريّة قويّة لا تنسى الوجوه أبدًا. أمّا الحجّام، فكان لديه المقدرة على تذكّر كلّ الأصوات التي سمعها في حياته، وربطها بأسماء أصحابها والظروف التي سمعها فيها. لكن ذلك الصوت الذي لا يفارق ذهنه، لا يعرف أين ومتى سمعه وهو، كلّما أغضبه شيء، راح يرنّ في عقله. في كلّ الكتب التي قرأها، كانوا يصفون الصداع بالألم، لكنّه عاد ليبحث عمّن يسمّيه صوتًا. كان صداع الحجّام يتحدّث إليه في رأسه، يسهب في الجمل والحوارات كأنّه جنّي صغير سكن جمجته، جنّي ثرثار لديه حكايات تكفي لمليون ليلة وليلة.

في بادئ الأمر، كان الجنّي يأخذ قيلولات طويلة يرتاح الحجّام خلالها. وعندما يستيقظ، كان يحكي له حكايات عن مراهقين ماتوا صغارًا، لم تمنحهم الحياة فرصًا كافية ليحبّوها، فاختاروا الموت. وبعد كلّ حكاية، كان الحجّام يزداد معرفة بطرق الموت: التأرجح من حبل متدلٍّ من السقف، الوقوف في وجه الترام، الاستحمام بالبنزين والكبريت.. إلخ. يوم اقترحت عليه رُقَيّة الذهاب إلى المستشفى الأميري، كان الجنّي يطرق على جدران جمجته محاولاً فتح نافذة بحريّة، ليطلّ منها على العالم. وبعد زيارة جابي وبيلوتشي، كان يبثّ في عقله حكاية مراهق منحته الحياة جميع فرصها، والد ذو مكانة مرموقة، وأسرة تحنو عليه، وبحر واسع يغسل فيه روحه، لكنّه اشتهى الموت وألقى بنفسه طواعيّة من فوق سطح منزل أبيه... الذي صار منزلك الآن... كان الحجّام ليقسم أمام صِدّيق أنّه سمع الجنّي يقول هذه الجملة بوضوح في قبوه الخالي، لولا أنّه فقد وعيه بعدها مباشرة.

نزلت رقيّة إلى القبو لتطمئنّ على أبيها. ورغم شمس العصر المشرقة، كان القبو معتمًا كعادته، والنوافذ الأرضيّة مغلقة وعليها ستائر سميكة مسدلة. تحسّست طريقها في العتمة عبر ضوء الشموع الطويلة. كان الحجّام مسندًا رأسه إلى منضدة الأدوات المعمليّة. نادته وسألته أن يصعد فيستريح بغرفته. لم يجبها. اقتربت منه وربتت على كتفه، ولم يجبها. مسّت جبهته فوجدتها ساخنة. كان اللعاب يسيل من جانب فمه. صرخت منادية على أمّها، فتردّد صوتها مجلجلاً في بئر السلّم. نزلت بهجة مسرعة، بينما راح عبد الله يصرخ... ماما، بابا... وصوته يرنّ في أرجاء البيت.

نادت رُقَيّة على سلامة العجلاتي، ليساعدها وأمّها على حمل أبيها. أخذوه في حنطور نحو المستشفى الأميري بالأزاريطة. في حجرة بالقسم المجّاني، استفاق الحجّام على إثر ضربات قويّة تلقّاها في صدره، من قبضة طبيب فرنسي. لم يجد الحجّام في نفسه القوّة ليسأل عن مكانه، ومن أتى به إلى هنا. كانت الممرّضة تترجم ما يقوله الطبيب الذي أخبرهم أنّ ضغط الدم كان مرتفعًا جدًّا، وسألهم إن كان قد شكا من أيّ عارض قبل هذا الإغماء المفاجئ. أخبرته رُقَيّة بنوبات صداع أبيها التي لا تنتهي وبأنّه شكا لها مرّة، من صوت طنين متواصل لا يفارق أذنيه.

نصح الطبيب بالمزيد من التحاليل والأشعات، لكنّه أردف أنّ عليهم الانتظار حتى يأتي دورهم في برنامج العلاج الاقتصادي. أخبرته رُقَيّة أنّهم قادرون على الدفع في القسم المميّز وأنّها ستنقل أباها إلى هناك ليخضع لكافّة الفحوصات اليوم. كان الطبيب الفرنسي متعجّبًا من تلك الأسرة التي يرتدي ربّها الجلباب ويمكنها أن تعالجه في القسم المميّز.

في القسم المميّز، تشارك أبوها الحجرة مع مريض من أعيان كفر الشيخ، محجوز ليخضع لعمليّة جراحيّة قريبة. كانت رُقَيّة تتناوب وأمّها على المكوث مع أبيها طوال النهار. وفي المساء، تطوّع سليم للمبيت مع الحجّام.

كانت أيّام الحجّام في المستشفى صاخبة، ممتلئة بزيارات مرضاه وأهل الحارة، التي لا تنتهي، وبأخذ عيّنات من الدم ومن كلّ السوائل الممكنة، في جسده. صار صوت الجنّي ملازمًا له طوال الوقت، وإن لم يعد يفهم كلماته بوضوح بعد أن غطّى على صوته طنين يشبه طنين النحل. كان يقاوم ابنته والأطبّاء أحيانًا، ويقرّر أنّه سيعود إلى بيته ولن يمنعه أحد، ثم يعجز من الإرهاق الشديد والهزال. عندما كان يمنحه الطبيب بعض المهدّئات، كان صوت الجنّيّ والطنين يخفتان، فيشعر أنّ جمجمته عادت تسعه وحده من دون ضيوف.

بعد أسبوع في المستشفى، توقّف الحجّام عن المقاومة واستسلم لحكايات الجنّي التي صارت عذبة تروي قصص أطفال يحبّون عرائس المولد الملوّنة، والقفز للاستحمام في الترع المتفرّعة من النيل في رشيد، مهرة يجيدون ركوب الحمير والأحصنة والمراكب، والطيران في الهواء حتى إذا لزم الأمر.

كانت رُقَيّة تجلس إلى جواره، تقطّع له الدجاج المسلوق قطعًا صغيرة. وبينما يقرأ في كتاب شعر، كان يأخذ منها قطع الدجاج وهو يلمح في عينيها سعادة، لاستجابته لها، كتلك السعادة القديمة التي كان
يضعها على وجهها في قبوه، وهي تراقبه يصنع مشروباته الملوّنة.

بعد أن أنهى الحجّام طعامه تركته رُقَيّة لينام قليلاً ونزلت إلى حديقة المستشفى حيث جلست تراقب أحواض الزهور الصغيرة المتناثرة والشجر المهذّب بعناية. جاءها طبيب إنجليزي يتحدّث العربيّة وأخبرها، أنّهم قد أنهوا فحوصات والدها كاملة. «والدك عنده ورم بالمخّ، له قطر الليمونة»... ودوّر أصابعه على شكل كرة صغيرة. سألته رُقَيّة: وده ورم كبير ولاّ صغير؟ فأجاب: لا كبير ولا صغير... خطير.

٢٢

عرفت رُقَيّة الكثير من الأمور والناس في فترة زمنيّة قصيرة. وعلى تنوّع الأشياء تلك، كانت تراها كلّها متجاورة لا تفصلها عنها سوى بضع دقائق وبضعة شوارع صغيرة. فقد كانت تحتاج إلى أربع دقائق لتصل إلى سينما سيليني، وعشر دقائق لتصل إلى كلّ سينمات وسط البلد، أمّا المستشفى الأميري، فيستغرق الذهاب إليها قرابة ربع الساعة.

صباح هذا اليوم تخطّت رُقَيّة رقمها القياسي، وذهبت في أطول مشوار لها. أخذت حنطورًا إلى مدافن العمود بالقرب من كوم الشقافة. وعندما وصلت، كانت الإذاعة في مقهى قريب قد أعلنت انتهاء وصلة «ساعة مع الشيخ محمّد رفعت». بعد أن انتهى المغسّلون من عملهم، تركت رُقَيّة المنزل وجاءت لتعاين التربة التي سيمكث فيها أبوها. كانت تلك هي المرّة الأولى التي تزور فيها المدافن. امتدّ خلاء الصحراء أمامها وبدا الأفق حادًّا، كأنّه حافّة الأرض. وتلقائيًّا حسبت أنّها تحتاج إلى نصف ساعة فقط، لتصل إلى الموت.

كان سليم قد أخبرها أنّه اتّفق مع عمّ إبراهيم، حارس المكان، على كلّ شيء. بحثت عنه ليرشدها، وجدته جالسًا على دكّة خشبيّة، أمام غرفته. كان يسحب بعض أنفاس من شيشة منزليّة الصنع، شعرت رُقَيّة بالتقزّز من مائها العكر ومن أسنانه الصفراء. نفخ في وجهها أنفاسه الكريهة وهو يخبرها: البقاء الله، قبل أن يسألها:

ـــــ أجيبلك شاي يا عروسة؟

ـــــ قوم ورّيني التربة فين؟

استمرّ عمّ إبراهيم في تعبئة صدره بالدخان، مسترخيًا في مكانه. وأجابها قائلاً:

ـــــ إنت تبع جنازة الضهر، مش كده... استريحي كده، أصطبح، ونقوم سوا...

شعرت رُقَيّة برغبة في ضرب عمّ إبراهيم، وربّما حتى في قتله. استفزّها بروده أمام بركان الحزن الذي كان يغلي في صدرها، وهو كان معتادًا على نظرات الحزن الطازجة التي يسبّبها الموت لأهل المتوفى، والأهمّ أنّه كان معتادًا على الصبر على سخطهم وهم تحت سطوة المفاجأة، لذا ظلّ يرتشف كوبه من الشاي. وعندما رأى سيّدة قادمة من بعيد، أشار لرُقَيّة أن تتبعها لأنّه سيدفن الحجّام إلى جوار أخي تلك السيّدة التي تأتي كلّ شهر لزيارة قبره.

وجدت رقيّة السيّدة الطيّبة تقرأ الفاتحة أمام قبر أخيها، ثم رأتها تحضر من سبيل قريب قلّة وتسقي نبتة ريحان. وزّعت خبز البكاكين على أطفال تجمّعوا من حولها. نبتوا من الأرض فجأة، أخذوا نصيبهم، واختفوا من جديد. شعرت رُقَيّة بالأمان لرؤية السيّدة تعتني بفقيدها.

جاء عمّ إبراهيم، وهو يتأبّط شيخًا أعمى. سلّم الشيخ على السيّدة، ثم جلس على دكّة خشبيّة وأخذ في قراءة آيات من سورة الكهف وهو يؤرجح جسده كشيوخ الأزهر المخضرمين. جلست السيّدة أمامه على مقعد وراحت تسمعه بتأثّر. أمسك عمّ إبراهيم جاروفه المعدني وشرع يحفر القبر الجديد. وبعد أن صنع عمقًا في الأرض، أعطته السيّدة خبزًا، فمسح يديه في جلبابه وجفّف عرقه وجلس يأكل. نظر إلى رُقَيّة مواسيًا:

ـــــ نقّيت لكم مكان ونس، بس عشان زباين جداد...

كانت قد غابت بعينيها في تراب الحفرة، التي بدت كفم مفتوح لكائن خرافي على وشك التهامها.

خرجت جنازة الحجّام من منزله مع أذان الظهر. سار خلف نعشه أهل الحارة، وجمع من مرضاه، بعد أن أمّهم الشيخ صدّيق في الصلاة عليه. قطعوا طريقًا طويلاً من العطّارين نحو مدافن العمود، يسبقهم ترديدهم الجماعي في الطرقات... لا إله إلاّ الله، ولا دايم غير الله... كان المارّة يفسحون الطريق للجنازة السائرة، وبعضهم كان ينضمّ إليها مردّدًا الأدعية، دون أن يسأل حتى عن اسم المتوفّى.

كانت الذكرى الأخيرة التي احتفظ بها صِدّيق عن صاحبه، هي هيأته الهزيلة. عندما علم أنّ رُقَيّة أخذته إلى المستشفى، ذهب لزيارته فوجده شديد البياض من الشحوب، صامتًا ينظر إليه وإلى أسرته بعتاب. ظلّ صِدّيق يواسيه وهو لا يردّ، وقبل أن يغادر حجرته، ناداه الحجّام. شعر أنّه يريد أن يخبره شيئًا ما، لكنّ الحجّام سلّم فقط عليه فشعر بعظام صاحبه تقبض على كفّه.

كان نعش الحجّام ثقيلاً كحجر صلد على كتف صاحبه. وكان صِدّيق يعتقد أنّ الملائكة تشارك في حمل نعوش الصالحين، لذا انتابه الشعور بالذنب وارتعشت يداه. أخذ مكانه واحد من جيران الحجّام، ومع ذلك لم يغادر كتفه الشعور بالتعب. لم يكن الثقل على كتفه ثقل صاحبه، وإنّما ثقل موته.

وصلت الجنازة إلى مدافن العمود. كانت رُقَيّة في انتظارهم ولم يكن عمّ إبراهيم قد أنهى الحفر بعد. وقفت رُقَيّة إلى جانبه تستمع إلى صوت الشيخ الأعمى وهو يقرأ سورة الحشر، على روح الغريب الذي سيجاوره أبوها. صارت تربت بيدها على النعش وهي تتمتم بالآيات، كما تفعل مع عبد الله عندما يمرض، فتحتضنه وتقرأ له سورة يس وهي تربت عليه. كأنّ الموت مرض سيُشفى منه أبوها بعد حين.

مع وصول جنازة العصر باكرًا، أسرع عمّ إبراهيم في الحفر لينهي دفن الحجّام، ويبدأ بدفن الميت الجديد. تناثر التراب من حوله صانعًا زوبعة ترابيّة أصابت عين رُقَيّة وأنفها. صاح سليم:

ـــــ بالراحة يا عمّ إبراهيم، مش كده!

ـــــ ما تخلّي العروسة تبعد شويّة كده، عشان نشوف شغلنا.

انهمكت رُقَيّة في مسح التراب الذي تراكم فوق النعش وفوق عمّة أبيها الخضراء، حتى صارت أكمام فستانها الأسود رماديّة، وأكمل عمّ إبراهيم حفره صامتًا. وبعد أن أنزلوا الجسد الملفوف بالأبيض إلى قبره، وقفت عاجزة أمام كلّ التراب الذي أهاله الحفّار فوق أبيها.

٢٣

بعد ثلاثة أيّام طويلة من عزاء مزدحم، أغلقت رُقَيّة باب المنزل وهي تودّع آخر المعزّين. كانت طوال الأسبوعين الماضيين، تتدبّر أمور المرض والموت كأنّها تشاهد كلّ ذلك من خلف شاشة، منتظرة ظهور كلمة النهاية لتضيء القاعة من جديد، فيعود الجميع إلى منازلهم، وهي معهم.

كانت صالة البيت مظلمة، أكواب القهوة مبعثرة على المناضد الصغيرة، وأمّها تحمّم عبد الله في الداخل. جلست رُقَيّة على الأرض بين الكراسي الخشبيّة التي أجّرتها مع صِوان العزاء، فجثم صمت ثقيل على صدرها واشتاقت إلى الحجرة البحريّة المغلقة منذ أسبوعين والتي لا تعرف إلى متى ستظلّ مغلقة. في العزاء، صرخت رقيّة في كلّ نائحة رفعت صوتها مجاملة لأمّها، إذ كنّ يجاملن بعضهنّ بعضًا بحناجرهنّ، ففي الأفراح يطلقن الزغاريد، وفي العزاء نواحًا متواصلاً. كرهت رُقَيّة أصواتهنّ النائحة لأنّها عرفت أنّها، بعد أن يرحل الجميع وتبقى وحيدة، ستسمع لقلبها نواحًا مماثلاً سيصرخ بين أضلعها وتهتزّ لقوّته المفارش الصغيرة التي تغطّي مناضد العزاء.

لم تبكِ رقيّة وقت أخبرها الطبيب أنّ أباها مات. ولا وهي تسخّن المياه ليغسله أصدقاؤه وجيرانه. حتى عندما رأته ملفوفًا بالأبيض، محمولاً نحو فم القبر الملتهم، وقفت كتمثال صلب يراقب المشهد ببرود. لكنّها بكت الآن بحرقة، وهي قابعة على الأرض، بين كراسي الموت المؤجّرة...

مرّت أربعون ليلة صامتة على منزل لم يخلُ يومًا من الصخب، قضتها رُقَيّة في القبو. أخرجت كلّ كتب أبيها من الصناديق، أنزلتها من فوق الأرفف، ونفضت التراب عن القديم منها. كانت تفتح النوافذ للشمس نهارًا، وليلاً تشعل الشموع الطويلة. طالعت وفهمت في الأربعين ليلة، ما عجزت عن فهمه طوال حياتها. قرأت فقرات من كتب لابن سينا والرازي والزهراوي والبيروني والأنطاكي، وشعرًا للبوصيري وسمنون المحبّ، وفلسفة لابن رشد. كانت تشعر أنّها قريبة مع هذه الكتب من أبيها بشكل ما، وأنّها كما كرّرت لنفسها، لم تزل على العهد.

سمعت رُقَيّة طرْقًا متواصلاً على الشرّاعة الزجاجيّة لبابهم الذي لم يعد مفتوحًا كعادته. فتحت رُقَيّة فوجدت الطارق سيّدة متّشحة بالسواد تحمل على رأسها قفّة، وإلى جوارها فتاة صغيرة تقبض على جلباب أمّها بشدّة. أخبرتها رُقَيّة أنّ أباها قد توفّي ولم يبقَ في البيت من يعالج بالحجّامة. قالت لها السيّدة إنّها تعرف بخبر موته وإنّها قدمت لتقديم واجب العزاء.

أشعلت رقيّة السبرتاية الصغيرة ووضعت على نارها كنكة القهوة. اعتذرت السيّدة لأنّها لا تحتمل قهوة العزاء السادة، وتشربها بسكّر مضبوط. حرّكت رقيّة البنّ مع السكّر بينما كانت السيّدة تتحدّث عن جدّ رُقَيّة الذي كان جارهم في البلدة القديمة، وعن كرم أبيها ومساعدته لها ودوائه الذي شفاها. أخبرت رُقَيّة أنّها ستكون دومًا إلى جوارها عندما تحتاجها في أيّ شيء، وستجدها في سوق شيديا حيث تأتي كلّ أسبوعين من رشيد، لتبيع الجبن والزبدة وبعض الخضروات التي تزرعها مع زوجها، في فدّانهما الوحيد. بعد أن قدّمت القهوة للزائرة المعزّية، قطّعت رُقَيّة البرتقال للطفلة الصغيرة، وأطعمتها أمّها فصوصه الصفراء.

خرج عبد الله من الشرفة وهو يحرّك رأسه مقلدًا اليمامات البيضاء. كانت رُقَيّة قد فرطت الحَبّ لليمام ليأكله بدلاً من زرع أبيها، وبقي عبد الله في الشرفة ليلعب معه. يحتفظ ببعض البذور في يديه ويبقى ساكنًا، فلا يخافه اليمام، بل يمكث ليأكل من يديه، ويحرّك رأسه الصغير للأمام، جزلاً من امتلاء معدته. كان عبد الله ما زال يمضغ بعضًا من الحَبّ وهو يخبر رُقَيّة أنّ جناحًا أبيض مثل اليمام سينبت له فيطير. لكن طعم الحَبّ كان مرًّا على لسانه، فأخرجت له رُقَيّة من جيبها الحلوى التي تصنعها له. أكل واحدة ومدّ يده بالأخرى للفتاة الصغيرة التي بقيت متعلّقة بجلباب أمّها. قالت السيّدة لابنتها: خديها منه يا رُقَيّة.

أتى عبد الله بقرده ـــــ اللعبة، وجلست رُقَيّة الصغيرة إلى جواره أرضًا، تأكل الحلوى ويعلّمها عبد الله كيف ينام القرد ويأكل ويدقّ على الطبلة.

أنهت السيّدة قهوتها وقامت وحملت صغيرتها نحو الباب. قبّلتها رُقَيّة وهي تخبر أمّها: اسمها على اسمي! ابتسمت السيّدة وقالت: ما أنا ندرت والندر الله، لو رزقني عيال، لأسمّيهم على أساميكم، لو بتّ رُقَيّة، ولو واد عبد الله.... الله يرحمه كانت إيده فيها الشفا. ثم أشارت إلى القفّة على الأرض: دول بكاكين، أمانة توزّعيهم على روحه وتسلّمي لي عليه وقوليله بقى عندي أنا كمان رُقَيّة.

٢٤

المرّة الأولى التي أخذت فيها رُقَيّة عبد الله إلى السينما، ظلّ متعلّقًا برقبتها، خائفًا من الظلام. حتى ظهر ميكي ماوس على الشاشة وهو يصفّر ويقود سفينته سعيدًا، ترك عبد الله رقبة أخته وجلس على كرسيّه هادئًا، مندهشًا. وهما خارجان من السينما، سألها: حنيجي الجنّة تاني؟ فأتت له رُقَيّة بالجنّة إلى منزلهم.

لم يكن جابي هو الوحيد الذي تقدّم لشراء البيت، لكنّه كان الأوّل. فبعد وفاة الحجّام، عرض الكثيرون على رُقَيّة شراء البيت بعد أن ظنّوا أنّ البيت المهيب سيصير مهجورًا. ثم كبر البيت أمام أعينهم وازداد طابقًا في الأعلى، ولم يخلُ يومًا من الغرباء. فيما مضى، كان قبلة المداواة لأجسادهم المرهقة، واليوم هو نزهتهم لإمتاع أرواحهم.

صعدت عائلة رُقَيّة للعيش في الطابق الجديد. تركت القبو كما هو مخزنًا، وإلى جوار كتب أبيها، أضافت رُقَيّة ركنها الخاصّ. أمّا الطابق الثاني، فصار جنّة عبد الله ومعبرها نحو الحلم. كانت رُقَيّة تبدأ يومها بسقي نباتات أبيها، وإعداد الإفطار لأمّها وأخيها اللذين لم يتخلّيا عن عادة الاستيقاظ متأخّريْن. بعدها، تنزل إلى الطابق الثاني الذي تبتسم رغمًا عنها كلّما دخلت إليه. عندما اتّفقت مع جابي وبيلوتشي على أنّها لن تبيع المنزل وستشاركهما في السينما، فتحوا غرف الطابق الثاني على بعضها فصار قاعة كبيرة اتّسعت لأربعمائة كرسيّ وشاشة ضخمة، وأقاموا بين منزل الحجّام ومقهى سيليني، ممرًّا صغيرًا ليكون معبرًا لروّاد السينما من شارع فؤاد نحو العطّارين، وبالعكس، فكان يربط بين قاعتي السينما. كانت القاعة الكبيرة في داخل المنزل، والقاعة الصغيرة في المقهى، فصنعوا لوحتي دعاية كتبوا عليهما سيليني باللغة العربيّة والإيطاليّة، ووضعوا واحدة فوق الباب الذي يطلّ على شارع فؤاد، والأخرى على باب المنزل. لكنّ أهل الحواري المجاورة الذين يقضون فيها أمسياتهم يوم الخميس، أسموها سينما الحجّام.

كنست رُقَيّة القاعة الكبيرة، مسحت أرضها ورتّبت مقاعدها، ثم نزلت إلى القبو. ومن مخزن الأفلام الموجود إلى جوار مكتبة أبيها، جهّزت بكرات فيلم حفلة الثالثة عصرًا، ليعرضها جابي.

في حارة الحجّام، كانوا يبدأون صباحهم بطبق فول وهم يستمعون إلى أغنيات راديو مقهى اللمّة الحلوة، بينما تبدأ رُقَيّة صباحها بعرض خاصّ لفيلم نجيب الريحاني. كان جابي قد علّمها كيف تستخدم آلة العرض، فتجلس على مقعدها الأثير في منتصف القاعة الخالية، تشرب عصير البرتقال وتشاهد الفيلم بمفردها. ومع ظهور الريحاني في مشهده الأوّل، تهتف رُقَيّة: صباح الخير يا نجيب!

٢٥

بيلوتشي، أيّها الأخ الحبيب.

لا تتأخّر هكذا مجدّدًا في إعلامي بعنوانك... أنت تعرف أنّني أحتاج دومًا إليك. إنّ صورتك إلى جوار برج إيڤيل جميلة. بتّ أعرف منها أنّك لم تعد قصيري بعد الآن. لقد انتقل اللقب إلى جابي، إنّه يذكّرني بك، لديه النظرات المشاكسة ذاتها، والإرادة المصرّة نفسها. يأخذ ما يريد، ويشقّ طريقه في الحياة بروح حرّة.

أخبرتك من قبل أنّني أحبّ الإسكندريّة. إنّها مدينة تصيبك بالحبّ وبالعجز.

أليس هذا جنونًا؟

طوال الوقت وهي تحنو عليّ، أنا ابنتها الجديدة. تخدّرني بجوّها البديع وطعامها ومسارحها. ودائمًا، بحرها مسجّى أمامي، يحمل أناسًا في سفر بعيد ويأتي بآخرين، وأنا قابعة هنا، أراقب موجه الذي يهدأ تحت أقدامي.

أريده أن يحملني حيث حملك يا بيلوتشي، إلى باريس والدار البيضاء. وربّما مجدّدًا إلى كالابريا، إلى أمّي وأبي، كم أشتاق إليهما...

أخبرني، كيف أقف عند باب العالم وأظلّ ساكنة في مكاني، أتلصّص عليه من ثقب صغير. ألا يصيب الأمر بلوثة جنون؟

أرسلت إليك بصورة لبيتا... تلك الفتاة... هل تظنّ أنّها تشبهني؟ الجميع يقول إنّها تشبه جدّتها، والدة ألبير... لكن تمعّن جيّدًا في الشعر الأسود القصير والتواء الشفاه الغاضبة... أنظر إلى قبضتها على طرف المقعد... كانت لتكسره لأنّني أجبرتها على الجلوس ليلتقط لها العزيز فنجلي هذه الصورة...

إنّها تفقدني صوابي هي الأخرى بغضبها الدائم. لا شيء تأخذه يجعل منها طفلة سعيدة... لا ترضى بالحلوى الملوّنة، ولا تتوقّف عن الرغبة في السباحة. وتوقظني يوم الخميس، من الفجر، حتى نستعد لذهابنا إلى السوق، وبعده إلى الحمّام الشعبي، لا بدّ وأنّك رأيت مثله في الدار البيضاء. أسير إلى جوارها، فأشعر بقبضتها القويّة على كفّي، وخطواتها الهشّة على الأرض، كأنّها على وشك الطيران.

هذه الفتاة تخيفني عليها كثيرًا، إنّها أنا من جديد... كأنّ الربّ يعيدني في دورة حياة لا تنتهي.

إنّك تقترب منّي أيّها الرحّالة، وليست الدار البيضاء ببعيدة عن الإسكندريّة. أتمنّى أن يكون مقهى سيليني محطّتك القادمة.

أختك المحبّة

سيلفانا ألبيرتيني جوتاري

١٢ ــ ٢ ــ ١٩٣١

أنهت بيتا قراءة خطاب أمّها الأخير. كانت جالسة أمام المرآة، تتزيّن للحفل الراقص في النادي الإيطالي، بعد أن دعاها ماركو لتكون رفيقته الليلة. ارتدت فستانًا من القطيفة الحمراء وتركت شعرها الأسود منسابًا. نظرت إلى وجهها في المرآة ومسحت دموعًا سوداء أسقطها حديث أمّها إلى خالها فأذاب الكحل، وهي تتمتم... لم يعد شعري قصيرًا، يا أمّي...

طرق ألبيرتيني باب حجرتها وصاح أن ماركو في انتظارها. خرجت بيتا بعينين منحهما بعض الدمع بريقًا لامعًا. كان ألبيرتيني وبيلوتشي يلعبان الشطرنج في صالة المنزل، نظرا إليها وخطر لكليهما هاجسٌ واحد... إنّها سيلڤانا من جديد. لكنّهما قالا إنّها جميلة، تمامًا مثل أمّها.

تأبّطت بيتا ذراع ماركو، فشعر أنّها خفيفة كما لو كانت روحًا من عالم آخر. في طريقهما إلى الحفل، ظلّ يحادثها ويلمس كلّ ثانية يدها ليتأكّد أنّها ما زالت هنا، ولم تطر بعد. بالقرب من سينما ريو، انطلقت سارينة الغارة، فاحتميا في مخبأ قريب. كان الناس بالداخل يتحدّثون عن اقتراب هتلر من الإسكندريّة.

في الظلام، تأمّل ماركو ملامح بيتا، لمس شعرها بخشوع كمن يؤدّي طقوس عبادة. كانت بيتا مأخوذة بصفاء السماء، حيث بدت أضواء الطائرات العابرة نقاطًا هزيلة إلى جوار البدر المكتمل.

شعرت بيتا أنّ الحرب أوشكت على الانتهاء، وأنّها ستفتح عمّا قريب باب العالم الذي حلمت أمّها بعبوره.

تمّت